الفصل الرابع

الفوضى فى العصور الوسطى

عصر الصدامات الدينية الكبرى

مقدمة

مع انتهاء العصور القديمة بدا واضحًا وجليًا أن الأعراق البشرية المختلفة فى أغلب حالاتها لا تستطيع التعايش بشكل سلمى بعضها مع بعض.

فالرغبة المحمومة فى السيطرة على الأراضى الغنية بالموارد وتوسيع المجال الحيوى للدول مع عدم الرغبة فى التعاون والتعايش السلمى بين المدنيات المختلفة فى أغلب الأحيان كان عاملا حفازا أسآسيا فى نشر ثقافة الفوضى بين المجتمعات البشرية القديمة.

obeikandl.com

وعلى صعيد آخر نلاحظ أن القوى التى نشأت وتعاظمت قوتها وأصبح لها اليد العليا فى مناطق النزاع كانت دائما ما تعانى من خلل مستمر فى نظمها الاجتماعية سواء فى التعامل مع مواطنيها الأصليين أو مع سكان المستعمرات المفتوحة.

فالنظم الطبقية المختلفة التى سادت مجتمعات العصر القديم كانت تتعامل مع أصناف كثيرة من البشر بكثير من الصلف والامتهان لكرامتهم الإنسانية، فعندما نرى على سبيل المثال مجتمعات تعتمد بشكل كامل فى قوتها البشرية على العبيد (مثل آشور وروما القديمة) وأن هؤلاء العبيد ليس لهم أى حق ويتنقلون من بؤس لبؤس من المحيا إلى الممات.

وفى نفس الوقت نرى فى قصور الحكام وحاشيتهم القديمة من ألوان البذخ وصنوف الانحلال الأخلاقى والفساد ما يندى له الجبين (ومن أوضح أمثلته سدوم وعمورة، مدينة بومبى القديمة التى غرقت فى بحر حمم فيزوف، مهرجانات عشتاروت فى أرض كنعان وما كان يحدث فى قصور روما يعجز اللسان عن ذكره)

نجد إذا هنا معادلة الفوضى المثالية (جنون السلطة+انحلال أخلاقى عام+فساد إدارى+بؤس شديد للطبقة الفقيرة= فوضى تسلسلية مدمرة).

obeikandl.com

حتى النظام الجمهورى الرومانى الذى كان قائما على مبدأ مؤسسات القانون و التشريع و عدم الانفراد بالسلطة لم يستطع الصمود أمام موجات الفساد المتفشية من أشخاص النظام الطبقى الّذين كانوا يكونون عماد هذه المؤسسات، فأخضعوها و قوانينها بالتالى لما يخدم مصالحهم دون باقى الناس و اشتدت معه صراعات السلطة و الحروب الأهلية حتى رضخ النظام التعددى لنظام حكم الفرد الواحد الإمبراطورى.

وكان من الطبيعى مع تمكن الرغبات و حب السلطة و صراع الموارد من الفئات المتصارعة أن يظهر التصلب الفكرى لأى دعوة إصلاحية تنادى بإصلاح النظام القائم فكان نشوء الاضطهاد الفكرى و الفوضى الفكرية هو ردة فعل النظم المعيبة ضد دعوات الإصلاح و قمعها بكل قسوة، ما أدى إلى انحرافات نفسية و فكرية خطيرة بين أتباع دعوات الإصلاح أنفسهم و تطور بالتالى مع وصول بعضهم إلى سدة السلطة أن يعتمد نفس مذهب الاضطهاد الفكرى على أتباع مذهبه أنفسهم.

كل هذه الصراعات كان لابد لها من دعوة إصلاحية جامعة جديدة تنفخ الخبث عن كل ماسبق و تزيل صدأ و فوضى البشرية و تردها إلى نظام آدم الأول، وكان مقدرا لها أن تخرج من رحم البداوة و القبلية.

ولأن هذه الدعوة كانت دعوة إصلاحية لعامة البشرية فقد كان مقدرا لها أن تتعرض لصدامات بشرية ضخمة من الشرق والغرب، وجعلتها محورا لصراعات وهواجس ووساوس امتدت إلى وقتنا المعاصر.

كانت دعوة الإسلام من قلب جزيرة العرب.

تعالوا معنا إذا لنتعرف على جزيرة العرب.

****

<u>فى جزيرة العرب</u>

كانت جزيرة العرب قديما موطنا لممالك عظيمة وقوية للغاية (ربما كانت من المعاصرين لحقبة ما بعد طوفان نوح مباشرة، فكانت ممن امتلك مؤسسوها بعضا من أسرار العلم الأول لآدم ومن أشهر ممالكها عاد بأرض الأحقاف، وثمود بالقرب من تبوك اليوم، الّذين قص الله علينا نبأهم فى القرآن وكيف بادوا واختفت معهم أسرارهم)

وقد انقسمت جزيرة العرب بعد هاتين المملكتين إلى قبائل توزعت فى ثلاث مناطق:

-شمالا وهى القبائل التى قد تكون نزحت إلى العراق والشام، من ولد كنعان بن نوح لتؤسس حضارات فى سومر وفينيقيا.

-وفى الوسط (أرض نجد وحضرموت وتهامة)، وكانت قبائل بدوية رحالة تعيش حياة البداوة بكل صورها فى بقعة لا كلأ فيها ولا ماء إلا حد الكفاف (ومنها قبائل العماليق وجرهم وهى من يُعرف بالعرب البائدة).

-وفى الجنوب من الجزيرة العربية كانت قبائل من ولد قحطان بن هود (من يُعرفوا بالعرب العاربة) تجمعت فى اليمن مؤسسة مملكة اليمن القديم (أو ما عُرف بتبابعة اليمن) وهذه المملكة يبدو أنها كانت على درجة عظيمة من القوة والمنعة إذ أن سلطانها قد امتد فى كثير من الأحيان فى الزمن القديم ليشمل جزيرة العرب كلها، وامتد إلى أطراف العراق ومصر، (ويبدو أن هذا كان فى فترة زمنية سبقت عصور الأسرات) كما كان لها علاقات تجارية وبحرية مع دول الشرق الأقصى كالهند والصين عبر المحيط الهندى.

فى وسط شبه الجزيرة:

وقد ذكرنا فى الفصل الأول كيف اغترب إبراهيم عليه السلام فى البلاد من بعد خروجه من أرض العراق ومروره بأرض الشام ثم مصر وزواجه من السيدة هاجر المصرية وإنجابه سيدنا إسماعيل عليه السلام، ثم تركهما فى جزيرة العرب عند موضع البيت الحرام.

وقد شب إسماعيل عليه السلام بين قبائل العرب وتعلم العربية منهم، ثم تزوج منهم وأنجب ولده عدنان الذى يُعرف بأبو العرب المستعربة.

وقد ظل النظام الإبراهيمى الأخلاقى والروحى سائدا لفترة طويلة من الزمن وكانت مكة مركزه وكان النظام قويا بحيث إنه لم يكن هناك مجال للسماح بأى فساد أن يتعمق فى المكان.

(ذكر المؤرخون كيف قاتل أبناء إسماعيل قبيلة جرهم وهم أخوالهم لما سرى فى قادتها الفساد وردموا بئر زمزم، وأكلوا مال الصدقات المُهدى إلى الكعبة، وطردوهم من مكة ولم يقم لهم ذكر فى التاريخ بعد ذلك) فقد كان الحفاظ على روح الدعوة الإبراهيمية نقيا من أولوياتهم لفترة طويلة.

ولن نزعم هنا أن أبناء إسماعيل كانوا ملائكة، ولكن يبدو أن بعدهم عن مؤثرات الوثنية والأطماع المستشرية فى المدنيات القديمة مع حياتهم البدوية جعلتهم أكثر صمودًا وتحملًا لمسئوليات النظام الإبراهيمى الأخلاقية والاجتماعية عن أبناء عمومتهم من بنى إسرائيل.

ولكن مع تكاثرهم وانتشارهم فى أنحاء كثيرة من جزيرة العرب، إضافة لتوسع تجارتهم واحتكاكها بمدنيات الشرق القديم (والتى كانت فى هذا الوقت خاضعة بين سلطة الفرس أو الروم الوثنيين) فقد كان من الطبيعى مع رؤية هذه المدنيات المتفوقة نسبيا فى الناحية التنظيمية والتقنية و العسكرية والاقتصادية أن تفتن بعض من أصحاب النفوس الضعيفة عن المنهج السليم وأن يروا أتباع منهجهم الدينى نوعًا من التطور و الحداثة.

وقد كان هذا ما حدث حينما أدخل عمرو بن لحى الخزاعى (جد قبيلة خزاعة)- الذى كان سيد مكة فى هذا الوقت- عبادة الأصنام الحجرية على أهل مكة متأثرا بأوثان أهل الشام بدعوى تقريبهم من الله.

ولا يوجد لدينا مصدر يخبرنا هل كان انتشار هذه العبادة سريعًا أم كان هناك مقاومة له، ولكن الشاهد أن عبادتها انتشرت من مكة مركز دعوة إبراهيم عليه السلام فى الجزيرة إلى باقى قبائل وبطون العرب ليصبح لكل منها معبود خاص مع احتفاظهم ببقايا من دين إبراهيم الأصلى فيها.

ومع اضمحلال النظام الإبراهيمى النقى بأغلب موروثاته الأخلاقية و الاجتماعية واستيراد الموروثات الفارسية والرومانية الطبقية الممثلة لمدنيات القوى العظمى، (وهو شبيه بما تمر مجتمعاتنا المعاصرة)، وتمكن الأطماع فى الموارد من النفوس (اتباعًا وتقليدًا لعادات القوى العظمى)، كان لابد أن تنشأ الصدامات والحروب القبلية لتتحول معها وسط شبه الجزيرة العربية لبؤرة من الفوضى تقوم على الانحلال والاستعباد و الإغارات المستمرة.

<u>مملكة اليمن:</u>

أما فى جنوب الجزيرة العربية فقد ظلت مملكة التبابعة ذات الموارد الكبيرة من المدنيات القليلة الموجودة فى الجزيرة العربية وقد ذكرنا فى العصر القديم كيف كان لمملكة سبأ اليمنية علاقات وطيدة مع مملكة بنى

إسرائيل السليمانية (فى عهد نبى الله سليمان) فقد كانت إذا لفترة من الزمن على الأقل مركز إشعاع للمنهج الإبراهيمى من ناحية بنى إسرائيل، و من ناحية بنى إسماعيل.

ولقد ذكر لنا القرآن كيف تمرد أهل سبأ على حياة النعيم الهانئة فى بلادهم المثالية ورغبوا فى الترحال فى البلاد و بطروا نعمة ربهم (وذلك مشابه لما فعله بنو إسرائيل مع موسى عندما قالوا لن نصبر على طعام واحد فالإنسان لا صبر له على حالة واحدة، حتى و إن كانت هذه الحالة نعيما فإنه يحن للشقاء) فكان العقاب بسيل العرم الذى دمر سدهم العظيم فى مأرب و دمر أرضهم و أدى إلى تشتيت قبائل كثيرة من أهل اليمن ارتحلوا شمالا ليؤسسوا مملكتى الحيرة فى العراق (وكانت تابعة للفرس) و الغساسنة فى الشام (وكانت تابعة للروم).

و قد ورثت حمير مملكة سبأ و ظلت على عرش اليمن ما يقرب من ثلاثة قرون. و فى أواخر عهد الحميريين تولى أمر اليمن ذو نواس الحميرى الذى اعتنق اليهودية (كما ذكرنا فقد كان لليهود علاقات قديمة مع اليمن إضافة إلى أن مجموعات من اليهود قد فرت من الشام إلى جزيرة العرب بعد تدمير بيت المقدس على يد الرومان، فلا عجب أن يتهود بعض من أهل اليمن فى ذلك الوقت).

وكنتاج لحالة العداوة المتأصلة بين اليهود والنصارى فى الشام فقد وصلت العداوة إلى اليمن حيث إن "ذو نواس الحميرى" المعتنق لليهودية أراد إثناء معتنقى النصرانية فى بلاده عن عقيدتهم، ومع رفضهم أصدر أوامره بإحراقهم أحياء فى أخاديد مُلئت بالزيت فقتل منهم ما يزيد عن عشرين ألفًا وذلك بدعم من قبائل اليمن الوثنية من أمثال بيت ذى يزن الذى كان على علاقة طيبة مع الفرس (استمرارا لمبدأ التقارب اليهودى الفارسى) (كان هذا استمرارا لمبدأ الفوضى الفكرية فمن ليس على مذهبى فهو عدو واجب قتله حتى لو كان مسالما)(يُعتبر اليهود من أوائل مبتدعى المحارق البشرية فى التاريخ).

وكانت النتيجة أن غزا الأحباش اليمن بدعم من الدولة البيزنطية انتقاما لنصارى اليمن القتلى والّذين رأوا فى ماحدث فرصة لتقليص النفوذ الفارسى الخفى فى اليمن والسيطرة على ممرات التجارة البحرية المؤدية إلى الشرق الأقصى واستطاعوا إسقاط الدولة الحميرية لتصبح تابعة تدور فى فلك بيزنطة (كان التقارب الفكرى والمذهبى بين الحبشة وبيزنطة هنا أساسًا لمبدأ الحروب بالوكالة).

ومن اليمن كانت أولى الصدامات التى مهدت لبزوغ النجم الخاتم الذى خرج برسالته فى محاولة كبرى لإعادة البشرية جميعًا إلى عهد النظام الأول.

****

العالم منذ عام (535-633م)

فى هذه الفترة انقسم العالم إلى مجموعة من القوى وظهر مبدأ القوى العظمى والقوى التابعة. وتجلى هذا واضحا فى منطقة الجزيرة العربية بشكل خاص.

وكان توزيع القوى كالآتى:

-دولة الفرس الساسانية: إحدى القوتين العظميين فى العالم القديم، و كانت تمتد من أراضى العراق إلى حدود الهند منذ عام 235م بعد أن ورثت أملاك الفرس الأشكانيين وهى العدو الأخطر للدولة البيزنطية فى ذلك الوقت .

-دولة الروم البيزنطية: وهى القوة العظمى الثانية التى تأسست عام 395م بعد قرار تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين، وكانت تمتد من آسيا الصغرى مرورا بالشام ومصر وشمال إفريقيا إضافة إلى أرمينيا وبحر قزوين (كانت هى الأخرى تهدد جارتها الفارسية).

-مملكة الحيرة: وأسستها قبائل مهاجرة من مملكة سبأ اليمنية المنهارة و استوطنت فى جنوب العراق وكانت التابع الأول لفارس حتى الفتح الإسلامى.

obeikandl.com

-مملكة الغساسنة: تأسست من إحدى الموجات الأخرى التى هاجرت من سبأ اليمن و استقرت فى شرق سورية القديمة، ولعبت دور الحليف العربى للروم البيزنطيين حيث كانت بمثابة كلب الحراسة للحدود الشرقية لبيزنطة من هجمات الفرس و العرب الموالين لهم.

-مملكة الأحباش اليمنية: وتأسست بعد أن غزا نجاشى الحبشة اليمن بدعم من بيزنطة و أسقط مملكة الحميريين وكان ذلك فى عام 535 م.

-وسط شبه الجزيرة العربية: وتألف من مجموعات مختلفة من القبائل التى تتناحر تارة وتتعاون تارة، والتى كانت أشهر تجمعاتها فى الشمال مؤلفة من قبائل بكر بن وائل وفى الطائف: هوازن وثقيف وفى يثرب: الأوس و الخزرج وفى مكة: قريش وكنانة و خزاعة وفى اليمامة: بنى حنيفة وغيرهم و كانت الزعامة الروحية فى منطقة الجزيرة

العربية لمكة حيث كان بقايا النظام الإبراهيمى و الحرم لايزال له ذكرى فى نفوس العرب.

وكما ذكرنا فقد كان اضمحلال النظام الإبراهيمى و اختفاء منظومة الأخلاق و العقد الاجتماعى القديم سببا رئيسيا فى ازدياد التناحر و الفوضى بل و النعرات التفاخرية بين قبائل العرب (حيث دأبوا على استخدام الشعر فى ذكر أمجادهم وتحقير خصومهم و الحط من منزلته)، وفتحوا

الباب واسعا لتقليد قوى الفرس والروم فى نظمهم حتى لو كانت نظم منحلة خاية من الأخلاق.

وقد صارت الرغبة فى السيطرة هاجسا يشغل بال الجميع فى جزيرة العرب، وليس السيطرة ماديا فقط، ولكن حتى السيطرة الروحية ونزعة التفاخر أصبحت محل نزاع وكان هذا سببا رئيسيا فى الصدام بين أحباش اليمن ومكة.

أبرهة وغزو الكعبة (عندما يتغول الفرع على الأصل):

كان أبرهة ملك اليمن الحبشى قد مد سلطانه إلى كثير من قبائل العرب فى محاولة لاجتذاب قبائل العرب إلى النصرانية، وقد لاحظ أبرهة أن محاولات فرض سلطانه لم تُفلح فى نشر النصرانية كما ينبغى، إذ ظلت قبائل العرب على صلة وثيقة بمكة أرض الحرم، والتى ظل الحج إليها عادة لم تنقطع من العرب منذ عهد إبراهيم عليه السلام على الرغم من كل ما أحدثوه فيها من العبادات الوثنية والمخالفات الصريحة للنظام الإبراهيمى، ولكن ظل الحج ذكرى تذكر العرب بهذا النظام القديم.

قرر أبرهة بناء كنيسة عظيمة فى اليمن من الذهب الخالص بهدف إغراء العرب على الحج إليها وليضمن بذلك تقليص أو إلغاء النفوذ الروحى لمكة بالجزيرة العربية، ولكن محاولته لم تُفلح ما جعله يقرر هدم الكعبة من أساسها لصرف العرب عنها.

ويحكى لنا هنا القصص القرآنى كيف فشل أبرهة فى مسعاه وهلك فى هذه الرحلة مع أغلب جيشه بفعل العقاب الإلهى لمحاولة تدنيس الكعبة.

كانت هذه الحادثة تمهيدا لتغيرات كبيرة فى الجزيرة العربية:

-كانت ضربة هامة للنفوذ البيزنطى فى جزيرة العرب، إذ استغل عدد من قبائل اليمن انهيار جيش الحبشة وكانوا من بقايا القبائل الموالية للبيت الحميرى، واستعانوا بالفرس على إخراج الحبشة من اليمن وتزامن ذلك مع انتصارات فارسية على الروم فى عدد من المعارك فى الشام وبحر قزوين وهو ما هدد الإمبراطورية البيزنطية وأشعل الصراع بين القوتين.

-على العكس من المرجو من حملة أبرهة فبدلا من تقليص النفوذ الروحى لمكة (وبالتحديد فى قريش) زادت سلطانها أضعافا مضاعفة فى نفوس العرب باعتبارها المدينة المؤيدة من السماء، وأعقب ذلك بالتالى تدفق المزيد من الهبات والعطايا والثروات عليها ما جعل نعرة التفاخر تزداد بشكل مطرد فى نفوس سادة مكة.

فى ظل هذه الأحداث وفى نفس العام الذى عُرف بعام الفيل وُلد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه البيئة الصحراوية القاحلة المليئة بالصراعات القبلية والاضطرابات الأخلاقية والتقليد الأعمى لنمط الحياة الموجودة فى بلاد القوى العظمى وحلفائهم.

وكما هو معروف وُلد محمد صلى الله عليه وسلم فى بيت من أشرف بيوت سادة قريش وتوفى والده قبل مولده وتوفيت والدته وهو فى السادسة، و نشأ فى كنف جده حتى الثامنة ثم انتقل إلى كنف عمه وهو فى الثانية عشرة من عمره.

ومع وصوله لمرحلة الشباب تعلم التجارة شأنه شأن باقى قبائل مكة التى كانت التجارة مهنتها الأساسية، وبزغ نجمه بين أقرانه من رجال مكة لصدقه و أمانته.

وقد كان منذ صغره عازفا عن سلبيات نظام قبيلته و انحلالها الأخلاقى و أصنامها، فكان شأنه فى ذلك شأن الأريسيين فى النصرانية و اليهود الملتزمين والحنفاء الّذين ظلوا على نظام إبراهيم عليه السلام فى جزيرة العرب (و الّذين كانوا قلة).

وعند بلوغه سن الأربعين كان الأمر الإلهى للرسول بقيادة ثورة الإصلاح ضد الفساد الأخلاقى و الدينى و الهمجية فى جزيرة العرب عن طريق التبليغ لدعوة الإسلام و التى كان هدفها الأساسى رد الناس إلى دعوة نبى الله إبراهيم الجامعة الأساسية و مكملا لنظام آدم الأول.

<u>دعوة الإسلام فى جزيرة العرب</u>

<u>فى مكة منذ عام 611-624م</u>

obeikandl.com

فى عام 611م بدأ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بدعوة سرية فى مكة لنبذ عبادة الأصنام، وإعادة النظام الأخلاقى لمجتمع مكة لما كان عليه فى عهد نبى الله إبراهيم عليه السلام.

وقد ظلت الدعوة سرية لمدة ثلاث سنوات، وكان عماد من دخلوا فيها فى البداية جماعة من فقراء وعبيد قريش الّذين وجدوا فى الدعوة مجالا للخلاص من ذل وهوان النظام الطبقى الظالم فى مكة. (لاحظ هنا أن أغلب دعوات الأنبياء الإصلاحية أو غيرها من دعوات الإصلاح يكون دائما أول من يؤمن بها المظلومون والمتضررون من أخطاء النظام القاتلة ولا يختص بها النظام العربى فقط، بل كل الأنظمة على مستوى العالم).

ومع اكتساب الدعوة لعدد لا بأس به من الأفراد (سواء من المستضعفين أو من أثرياء قريش الّذين تلاقت أفكارهم وأخلاقهم مع أفكار وأخلاق النبى الإصلاحية) بدأ الرسول بدعوة رؤوس قبائل قريش وبطون مكة المختلفة إلى دعوته بنبذ عبادة الأهواء (المتمثلة فى الأصنام) وبالعودة للأخلاق الحميدة وإقرار العدالة بين أفراد المجتمع القبلى.

وكما كان شأن كل الرسالات التى سبقت رسالة الإسلام فقد واجه مجتمع أثرياء مكة دعوة الإصلاح المحمدية بالعنف والقسوة والغلظة، إذ وجدوا فى دعوة الرسول انتقاصًا خطيرًا لسلطة وزعامة قريش على قبائل العرب و التى اكتسبتها مكة منذ عهد إبراهيم عليه السلام وترسخت على مر الأزمان

حتى حادثة الفيل الشهيرة، كما وجدوا فيها تهديدًا لمواردهم المهمة من الهبات التى تدخل للحرم من موسم الحج كما أن كل القبائل كانت تحرص على تأمين مسار قوافل قريش إقرارًا منهم بزعامتها.

(جميع الأنظمة المعتلة تحرص على إظهار نفسها بمظهر المثالية و إخفاء عيوبها بدلًا من الاعتراف بها و معالجتها بصدق و هو العجز المستمر فى قراءة أحداث التاريخ).

وكما فعل الرومان فى النصارى فى بداية أمر الدعوة المسيحية لاقى المسلمون الأمرين من عذاب و إذلال سادة قريش الأجلاف لهم و اضطهادهم المستمر.

وعلى مدار ثلاثة عشرة عاما فى مكة دارت بين الرسول عليه الصلاة و السلام و بين قريش رحى معارك فكرية و مجادلات عنيفة حاول فيها الرسول نشر دعوته فى مكة و الطائف بكل الطرق السلمية و لم يأمر أتباعه برفع سلاح أو مواجهة عنف مكة ضدهم بعنف مماثل.

وكان النظام الإسلامى فى فترة البعثة فى مكة قائم على إقامة الحجة على أهل قريش و غيرهم من رافضى الدعوة عن طريق إنزال النصوص القرآنية فى مواقف الجدال لتكون مدعمة للموقف (لم يعرف الإسلام نزول نص مقدس كامل مرة واحدة كما كانت التوراة أو الإنجيل و لعل ذلك ساهم فى

عملية حفظ النص سليما من التحريف على عكس سابقيه) ولذلك كان النص القرآنى قائمًا على تطوير جديد فى نظام التعليم، وهو التعليم عن طريق مواجهة المواقف المختلفة.

كما كان التركيز فى هذه الفترة قائمًا على غرس القيم والأخلاق فى نفوس جيل الإسلام الأول وتهذيب أخلاقهم وترسيخ الشعائر بداخلهم؛ لأنهم كانوا بمثابة السفراء المساهمين فى نشر الدعوة داخل مكة مع الرسول و عقب الهجرة بعد ذلك (تشابه ذلك مع وجود الحواريين فى دعوة عيسى عليه السلام).

كانت الدعوة هنا قائمة على مبدأ التفاعل والاستجابة للمواقف المختلفة من مجادلات أو عنف مادى أو نفسى بالصمود والصبر على المنهج. (اختبار الثبات الذى فشل فيه يهود بنى إسرائيل فى عهد موسى عليه السلام) وكل ذلك من دون الدخول فى محاولة لهدم نظام مكة بالقوة وإنما بالعقل .

وفى عام 624 م قيض الله لمسلمى مكة أعوانا من يثرب تلاقوا معهم فى الفكر والرغبة فى الإصلاح ومع دعوتهم للرسول بالهجرة ليثرب أمر الله نبيه بالهجرة للبدء فى تأسيس الدولة على المنهج السليم.

<u>علاقة الإسلام باليهودية والنصرانية (571-624م):</u>

<u>الإسلام واليهودية (عداء منذ اللحظة الأولى):</u>

ذكرنا سابقا كيف كان لليهود من تواجد فى جزيرة العرب منذ عهد التواصل الأول بين مملكة بنى إسرائيل السليمانية و مملكة سبأ اليمنية و نزوح عدد من بطون اليهود من الشام إلى جزيرة العرب فى فترة الشتات التى أعقبت تدمير بيت المقدس و قضت على وحدة القومية اليهودية إلى الأبد.

و قد كان تركز اليهود فى البداية فى كل من اليمن و حول يثرب ثم أصبح مركز اليهود الرئيسى فى يثرب و ما حولها فى أعقاب غزو الأحباش لليمن.

و لأن صدمة تدمير حاضرتهم و إنهاء ملكهم كانت عنيفة و شديدة فقد عكف الكثير منهم على البحث فى توراتهم على أى شيء يداوون به جراحهم النفسية، وكانت نبوءة موسى بالرسول الخاتم الذى يخرج من جزيرة العرب سببا رئيسيا فى توجه عدد لا بأس به من اليهود إلى جزيرة العرب أملا فى أن يخرج الرسول من وسطهم و به يستعيدون ملكهم السليب.

ولقد كان اليهود دائمى التفاخر بذلك النبى أمام قبائل المدينة، بل ويصل الأمر حين تشتد الخلافات معهم أن يهددوهم بأن يقتلوهم بهذا النبى و يسيلوا دماءهم (و ذلك بدلا من أن يتعايشوا معهم بشكل سلمى و يندمجوا فى وسطهم تأملوا هنا الطبيعة النرجسية و جنون العظمة التى طغت على عقول بنى إسرائيل على الرغم من كل المذابح التى نزلت بهم إلا أنهم لم

obeikandl.com

يتعلموا الدرس) (لم يكن بالتأكيد كل اليهود على هذا النمط، ولكن الغالبية العظمى منهم كانت تسيرعلى هذا النهج المنحرف) .

ولكن مع مولد الرسول عليه الصلاة والسلام وتأكد اليهود من أن النبوة خرجت منهم إلى الأبد وفازبها بنو إسماعيل بدلًا منهم بدأ اليهود يتخذون موقفًا عدائيًا من النبى الجديد حتى منذ أن كان طفلًا رضيعًا (حاولوا الاعتداء عليه وهو صغيرفى أحد أسواق مكة) ولعل حوار الراهب بحيرى مع عمه أبو طالب عندما اصطحبه فى رحلته التجارية الأولى وهو ابن اثنى عشرعامًا حين أخبره أن يرجع به حتى لا تفطن له عيون اليهود فيفتكون به.

وعند بعثته كان اليهود قائمين مقام مستشارى قريش خفية فى بعض المجادلات الحوارية التى كانت تقوم بين الرسول وسادة مكة، حيث اعتمدوا عليهم فى طرح أسئلة معجزة للرسول لتبيان كذبه على اعتبارأنهم أصحاب الكتاب الأول، فبدلا من أن يعظوهم لاتباعه كانوا يحاولون معاونتهم للحط من شأنه (تطور ذلك العداء كثيرا عقب هجرته إلى يثرب).

****

الإسلام و النصرانية (علاقة ود لم تستمر):

على عكس اليهود فى تعاملهم مع الرسالة الجديدة فقد كان عدد من النصارى الّذين سكنوا جزيرة العرب و قرؤوا الكتب المقدسة (على اعتبار أن كلا من التوراة و الإنجيل من ضمن كتب النصارى أيضا) قد رأوا نفس النبوءة التى عاينها اليهود فى كتبهم، ولكن استجابتهم لهذه النبوءة كانت أكثر رفقًا و أعظم إجلالًا مما قام به اليهود (كما ذكرنا أن أحد الرهبان عندما عرف علامة النبوة فى رسول الله أجلّه و نبه عمه للعودة به خوفًا عليه من اليهود فكان بهذا حارسًا للنبى).

كما كان أحد أقرباء زوجته خديجة رضى الله عنها، وهو ورقة بن نوفل قد تنصر و عندما أخبره الرسول ببعثته أيده و ثبته و لم يجحد نبوته.

و تجلى أعلى مثال لعلاقة الود هذه عندما اشتد الإيذاء على أصحاب الرسول فنصحهم بالهجرة أولا إلى الحبشة النصرانية؛ لأن ملكها النجاشى (أصحمة بن أبجر) -وكان على مذهب الأريسية التوحيدية- رجل عادل لا يُظلم عنده أحد و هو ماحدث بالفعل إذ رفض تسليمهم إلى قريش و منحهم حرية العبادة و التنقل فى أرضه كيف شاء، بل و قد أسلم إذ أن النبى صلى عليه صلاة الغائب حين بلغه خبر موته.

فكانت بداية هذه المرحلة مرحلة ود و صداقة نزل على إثرها قول الله تعالى:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الّذين قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) صدق الله العظيم (المائدة، 81).

ولكن هذه العلاقة ما لبثت أن بدأت بالتغير مع تعاظم شأن الدولة الإسلامية بعد الهجرة إلى المدينة.

دولة الإسلام فى المدينة (624-633م):

مع اشتداد العذابات وتضييق أهل مكة على الرسول وأصحابه لم يعد هناك مفر من ترك هذه الأرض والفرار بالدعوة إلى مكان آمن يستطيع فيه المسلمون تطبيق تعاليم نظامهم فيه من غير خوف من اضطهاد أو تعذيب، فكان القرار بالارتحال إلى المدينة خاصة مع تنامى شأن الإسلام فيها منذ عام 622م مع إسلام العديد من سادة الأوس والخزرج والّذين مهدت نبؤات اليهود عن الرسول فى تهيئتهم نفسيًا للإيمان بدعوته.

وقد هاجر الصحابة المكيون إلى المدينة تباعا وقد تركوا كل متاعهم وأموالهم، بل منهم من ترك من أهله فى مكة فرارًا من بطش سادة قريش وسافروا خفافًا إلى المدينة.

ومع نجاح الرسول الذى كان آخر من هاجر فى الوصول إلى المدينة عكف مع صحابته من المهاجرين والأنصار على تنظيم شئون مدينتهم الجديدة على المنهج الذى أنزله الله له.

النظام النبوى وتأسيس الدولة:

عندما ننظر إلى النظم القديمة السائدة فى العصور القديمة من بعد طوفان نوح وحتى البعثة المحمدية نجد أنها قد عانت من ثلاثة أخطاء قاتلة كانت هى المحرك الأساسى وراء كل فوضى فى العصر القديم:

-أولا الطبقية: وليس معناها هنا تواجد أغنياء وفقراء، وإنما تقسيم المجتمع لسادة لديهم كل الامتيازات وبيدهم كل الثروات ولهم كل الحقوق وإليهم تذهب كل الخيرات يشكلون هم طبقة النخبة وذروة سنام المجتمع فى كل المجالات، بغض النظر عن كفاءتهم أو قدراتهم الإدارية أو التزامهم الأخلاقى من عدمه، يقف فى مقابل ذلك فئة الرعاع أو العوام الّذين تتألف منهم الطبقات الأدنى من النخب من مواطنين عاديين لهم حقوق محدودة إلى عبيد ليس لهم أى نوع من الحقوق وعلى أكتافهم قام عبء الترفيه عن السادة وبناء المدن والإمبراطوريات (كما كان يحدث فى آشور و روما)(لاحظ هنا عزيزى القارئ أن مجتمعات الاستعباد كانت هى السمة السائدة فى العالم كله وليس كما يدعى البعض من تشجيع الإسلام للرق و العبودية).

-ثانيا: غياب منطق العدالة المحايدة: فوجود طبقة النخبة المسيطرة استتبع معه بالضرورة وجود آليات الحفاظ على هذه النخبة فى موضع القوة الدائمة، ولهذا كانت دائما ما تتعرض القوانين الموضوعة (والتى تبتعد كل البعد عن المعيار الإلهى الحاكم) لأنواع مختلفة من التحايلات و الانتهاكات بهدف خدمة النخبة (مثال ذلك ما كان يحدث فى أروقة السناتو الرومانى من تفصيل قوانين تجيز للإمبراطور الزواج ممن يشاء وتطليق من يشاء خدمة لملذاته الذاتية). ومع تغييب الرقابة الأخلاقية على القوانين والنظم أصبحت آليات العدالة مجرد ألعاب لخدمة ذوى النفوذ وأصحاب السلطان.

-ثالثا: غياب مفهوم التعايش السلمى بين الأعراق البشرية: فالصراع المستمر على الموارد والأطماع المتزايدة فى توسيع النطاق الحيوى للدولة جعل الإمبراطوريات القديمة تشن العديد من الحملات الدموية الاستعمارية والتى تُخلف وراءها آلاف القتلى، وتورث العداء بين أعراق البشر المختلفة، وليس من حاكم أووازع أخلاقى حتى فى شن الحروب تجنبا لإراقة دماء الأبرياء.

كما كان لبزوغ نجم قوة من القوى القديمة على الساحة وفرض سلطانها على غيرها من الدول أثر فى محاولة فرض النظام الفكرى والعقائدى للدولة المهيمنة على باقى المستعمرات، وحتى لو تطلب الأمر إحراق

المستعمرات و إبادة من فيها لحملهم على الرضوخ (و الأمثلة كثيرة منذ تطبيق مبدأ الحق الإلهى و عبادة الملك فى مصر القديمة مرورًا بمحاولة الفرس إخضاع الإغريق لسلطان إمبراطورهم المعبود ثم محاولة الإسكندر هيلنة الشرق القديم بما فيه فارس، و انتهاءً بروما التى حاول كثير من أباطرتها الوثنيين نشر مبدأ عبادة الإمبراطور فى المستعمرات مع اضهادهم للمسيحيين، و حتى أغلب التوحيديين من بنى إسرائيل الّذين انحرفت فطرتهم السليمة و نظروا لمن عاش بينهم من شعوب كنعان على أنهم مخلوقات دونية مسخرة لخدمتهم و أنهم العرق الأرقى و ما حدث منهم إزاء النصارى فى الشام و اليمن يدل على مدى الدموية التى اتسمت بها تعصباتهم الفكرية. وكان ختام العصور القديمة ما حدث من اضطرابات مذهبية عنيفة بين النصارى بعضهم بعضا و هو مدخل مهم استخدمه دعاة الفوضى بعد ذلك لإسقاط دولة الإسلام).

نظر الإسلام لهذه الأخطاء الثلاثة فحرص على تجنبها عند إقامة دولته الوليدة على النحو التالى:

-منذ عهد البعثة فى مكة حرص الإسلام على معالجة مشكلة الطبقية و نعرات التفاخر الكاذبة من سادة قريش و نخبتها بإقرار مبدأ حاكم أصيل (لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) (و إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فجعل ميزان الأخلاق الطيبة و العمل الصالح المُتقن معيارًا للأفضلية عند

الله يستوى فيها هنا الغنى مع الفقيرو الأبيض مع الأسود و الحر مع العبد، ليسهل عملية الانصهار بين طبقات المجتمع المختلفة فى نسيج واحد بحيث يسهل مع الوقت إلغاء الاعتماد على العبيد ما يفتح الباب لتحريرهم من قيد الرق، كما حرص على نفى الكبر من نفوس الصحابة ولو حتى بتفاخرهم بأنهم فازوا بالنبى الخاتم، فكان يحرص على تذكيرهم أنه بشر مثلهم حتى لا يغتروا به كما فعل اليهود و النصارى.

-ولضمان تطبيق المبدأ الأول حرص المنهج النبوى على تطبيق مبدأ إحقاق العدل بين فئات المجتمع المختلفة، فبدأ بمبدأ التآخى وآخى بين المهاجرين والأنصار مع الحرص على توزيع الموارد المتوفرة بينهم بالتساوى، وترسيخ مبدأ التكافل بحيث يساعد القوى منهم الضعيف و الغنى منهم الفقير بما يضمن حسن تدوير الموارد وعدم تركزها فى يد فئة واحدة دون الآخرين، (فكان مع ذلك فريضة الزكاة وسنن الصدقات) وكل ذلك تحت مظلة أخلاقية صارمة بدأ هو بنفسه و أهل بيته فيها حتى يصدرها كقدوة لكل أتباعه و أصحابه، كما صاحبها تشريعات قرآنية حازمة لتوقيع العقوبة الحاسمة على كل من تسول له نفسه العبث بموارد المجتمع الجديد يستوى فيها الغنى مع الفقير فلا مجال للتلاعب لصالح نخبة أو فريق دون الآخرين. (لاحظ هنا غياب مصطلح صراع الموارد فى المجتمع الإسلامى و إحلال محله مصطلح تقاسم الموارد أو إدارة الموارد لترسيخ مبدأ التعايش السلمى كما ظهر جليًا مبدأ العدالة العمياء التى تتعامل مع الجميع على

قدم المساواة)، وقد ظهر جليا حرصه على تذكير أصحابه بأن الموارد إنما هى عرض زائل فلا يجب الصراع عليها فى حديثه (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنِّي أخشى أَنْ تُبْسَط عليكم الدُّنيا كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فتَنَافَسُوها كما تَنَافَسُوها، وتهلككم كما أهلكتهم) فحذرهم هنا من التنافس على الموارد حتى لايقع بينهم التشاحن ويكرروا أخطاء التاريخ.

-و أما عن التعايش فقد حرص النبى و أصحابه منذ بداية البعثة على عدم إثارة قلاقل أو الدخول فى صراعات مسلحة قد تتحول إلى حروب أهلية قبلية. فحرص على تحمل الإيذاء مدة ثلاث عشرة سنة فى مكة من دون قتال متعايشا مع معطيات الأمر الواقع حتى جاء أمر الهجرة إلى المدينة. و مع هجرته إلى المدينة وعلى الرغم من علمه

بكراهية أغلب بطون اليهود له و التى زادت مع احتشاد أغلب أهل المدينة خلفه و خلف منهجه ما جعل مصالح اليهود فى خطر، إلا أنه مع ذلك لم يُقدم على اضطهادهم و لا قتالهم بل عقد معهم عهدًا عامًا عُرف باسم (وثيقة المدينة) أقرهم فيها على أملاكهم و أموالهم و ديارهم وكفل لهم حرية العبادة و تعاهد معهم على النصح بالبر و تجنب الإثم و الدفاع المشترك عن المدينة ضد أى تهديد خارجى (كان هذا قبل نزول آية الجزية)، و العمل على بناء المدينة كمجتمع مترابط متعاون (و هو بذلك كان يهدف

إلى قطع كل سبل إثارة الفوضى على اليهود حتى يُعذرهم إن نكثوا بالعهد و ما أسرع ما فعلوا).

و مع معالجته للأخطاء الثلاثة السابقة بنى الرسول ركائز دولته من القاعدة المكانية (المسجد فى المدينة) ليربط الأخلاق و السمو فى إقامة الشعائر بكل ما سواها فى التعاملات بين كيانات المجتمع المسلم، و أسس لنظام الحكم بالشورى و تمحيص الآراء و أخذ أحسنها (و ليس قصرها على النخب من النبلاء و أصحاب الأموال) كما أقام دولة القانون و طبقه على سائر أهل المدينة، كما مهد للدعوة بالحسنى بين أهل الكتاب و مجادلتهم بشكل حيادى عقلانى من غير إكراه و لا عنف.

و عقب وضعه حجر الأساس لدولته بدأ الرسول عليه الصلاة و السلام بالالتفات لعدوه من سادة مكة الّذين وضعوا أيديهم غصبا على أموال و أملاك المسلمين فى مكة ليشعلوا بذلك أول صدام بين الإسلام و الوثنية فى جزيرة العرب .

إنهم يدعون إلى نظام جديد فماذا نحن فاعلون؟

ربما كان هذا العنوان ساخرا، و لكنه فعلا ما كانت تتحدث به القوى المناوئة للنظام المحمدى عقب نجاح الرسول فى الهجرة و بدء تأسيس الدولة.

ففى داخل المدينة لم يكن كل أهل المدينة على وفاق مع النظام الإسلامى الجديد، إذ رأوا فيه انتقاصًا لصلاحيتهم و سلطاتهم داخل المدينة، و لكن بما أن غالبية قومهم قد مالوا إلى كفة الرسول فقد أصبحوا تبعا للعادة القبلية مجبرين على اتباعه، و لكن بنوع من التربص فى انتظار أقرب فرصة لنقضه من أساسه (بداية مظاهر النفاق و طفيليات الفوضى الداخلية).

كما أن يهود المدينة و ما حولها على ما عُرف منهم من عداء لدعوة الإسلام (كما كانوا يعادون دعوة المسيح فى الشام) قد أصابهم الضرر من النظام و القوانين الموضوعة فى وثيقة المدينة فهم لم يعد بإمكانهم السيطرة على اقتصاد المدينة بأنظمتهم الربوية كما كانوا يفعلون، كما لم يعد بإمكانهم ممارسة عادتهم القديمة فى التفريق بين الأوس و الخزرج و التكسب من خلافاتهم، (حاولوها مرة واحدة بعد الهجرة فى تذكيرهم لهم بيوم بُعاث و أحبطها رسول الله صلى الله عليه و سلم) ما ولد عندهم مزيدا من الحنق و الحقد على دولة الإسلام فى المدينة.

أما فى خارج المدينة فقد كانت قريش هى العدو الخارجى الأول و التى حاولت منع الدعوة فى مكة بشتى الطرق حتى وصل بهم الأمر محاولة قتل الرسول عليه الصلاة و السلام عند محاولته الهجرة، و مع فشلهم و كرد فعل انتقامى من الرسول و صحابته لنجاحهم بالفرار بدينهم صادرت قريش

كافة ممتلكات المهاجرين و أموالهم فى مكة، و ظلت متربصة لدعوة النبى عليه الصلاة و السلام.

تلاقت مصالح المنافقين و اليهود فى المدينة مع تربصات قريش فى مكة و باتوا على وفاق للحشد ضد الرسول عند أول فرصة.

و قد جاءت الفرصة مع محاولة الرسول و أصحابه باستعادة جزء من حقوقهم المسلوبة لدى قريش عن طريق التعرض لإحدى قوافلها التجارية ما حدا بأبي سفيان بالاستنجاد بقريش فى مكة لإنقاذ القافلة فحشدت قريش مقاتليها ووجدتها فرصة سانحة لضرب دولة الإسلام ضربة قاصمة، فكانت معركة بدر الكبرى التى نصر الله فيها رسوله على كفار مكة.

وبدلا من أن تهتز مكانة دولة الإسلام فى المدينة ترسخت ساسات الرسول فى قلوب أصحابه من المهاجرين و الأنصار، و أصبح وجود دولة الإسلام فى المدينة أمرًا واقعًا لا مفر منه.

أعقب غزوة بدر الكبرى مجموعات متنوعة من محاولات افتعال الفوضى داخل النظام الإسلامى لزعزعة استقرار الدولة فى الداخل مع التنسيق مع قريش و قبائل العرب المناوئة للمدينة لعقد تحالفات عسكرية تهاجم المدينة من الخارج.

تنوعت المحاولات الداخلية بدءًا من انسحاب المنافقين من جيش الرسول يوم أحد و محاولة اغتيال زعماء يهود بنى النضير للرسول و إثارة القلاقل فى أحياء المدينة (مثلما فعل يهود بني قينقاع عندما اعتدوا على امرأة مسلمة، و أدى ذلك إلى اشتعال القتال بين المسلمين وبني قينقاع وكانوا أول اليهود اجلاءً عن المدينة) إضافة إلى محاولتهم بث الفتنة فى قلب الدعوة نفسها عن الطريق التلاعب بمفهوم الإيمان عند المسلمين (إذ كانوا يدعون الإسلام فى أول النهار و الكفر به فى آخر النهار حتى يلتبس على العامة ما إذا كان الدين أمر جيد أو سيئ فيشيعوا بذلك فوضى دينية فى المدينة، ولعل ذلك كان أحد أسباب تشريع حد الردة لوأد الإخلال بالنظام العام للدولة).

ثم زادت العلاقة سوءًا بين المسلمين و اليهود فى أعقاب خيانة يهود بني قريظة وبني النضير للرسول فى غزوة الأحزاب و تحالفهم مع قريش لإدخالهم المدينة من ناحية حصون اليهود بدلًا من الخندق الذى سد به المسلمون مدخل المدينة الرئيسى، و أدى ذلك إلى قرار الرسول بمهاجمة بني قريظة و إجلائهم عن المدينة ولم يتبقى من حصون اليهود فى المدينة إلا خيبر أمنع حصونهم و التى ما لبثت أن وقعت مثل سابقيها فى يد المسلمين عقب صلح الحديبية بين الرسول و قريش.

واستمر المنافقون مع ذلك فى محاولة إثارة الفوضى داخل المدينة عن طريق الترويج لشائعات تمس الرسول نفسه وكفاءته الجسدية والإدارية، بل ووصل بهم الأمر للطعن فى عرضه وشرفه بهدف إلهاء الناس عن التقدم لمساعدته فى بناء كيان اليوتوبيا الإسلامية.

ولكن على الرغم من كل المعوقات الداخلية والتهديدات الخارجية نجح النظام بفضل الله أولا ثم بقيادة الرسول وبمعونة أصحابه المخلصين الّذين التفوا حوله وبنوا معه جبهة داخلية صلبة منيعة نجحت فى صد السموم والشائعات الداخلية كما نجحت فى دحر العدوان الخارجى من قريش وباقى قبائل العرب.

فمن بعد غزوة الخندق بدأت كفة ميزان القوى ترجح لصالح دولة المدينة المنورة مع إقبال عدد كبير من قبائل العرب على الدخول فى دعوة الإسلام بشكل طائع ومسالمتها بعد أن رأوا انتصاراتها المتكررة تجاه القوة الكبرى فى وسط جزيرة العرب.

وترسخت قوة الدولة ونظامها بعد صلح الحديبية وخاصة مع دخول خزاعة (سادة مكة القدامى) فى فلك الدولة الإسلامية الجديدة وانتشار الإسلام فى أرض اليمامة وفى بلاد البحرين وعمان عن طريق إسلام سادة

تلك البلاد الّذين نشطوا فى نشر الدعوة بين أقوامهم (نلاحظ هنا أن على عكس التوسعات الأولية للإمبراطوريات القديمة التى انتشرت أساسًا عن طريق الحملات العسكرية الهجومية و الدموية، فإننا نجد هنا أن التوسع الأولى لدولة الإسلام كان أساسًا مبنيًا على المعارك الفكرية و المخاطبات العقلية، إضافة إلى الرحلات التجارية، وكانت المعارك الحربية أساسًا معارك دفاعية للذود عن حاضرة الإسلام من الاعتداءات المتكررة، ولم يكن فى أيها حملات توسعية هجومية).

وقد تكلل المجهود النبوى فى بناء الدولة بفتح مركز الإشعاع الإبراهيمى القديم مكة فى عام 631م كرد فعل لنقض قريش شروط صلح الحديبية و قتلهم للأبرياء العزل من مسلمى خزاعة فى حرم البيت، وعلى الرغم من ذلك فقد كان فتحا سلميا لم يحدث فيه إراقة للدماء، بل على العكس عفى فيه الرسول عن أهل مكة و أمنهم على أرواحهم و أموالهم ما دفع أهلها جميعا للدخول فى الإسلام ثم أعقبها بفتح الطائف فى نفس العام لتتحول معها منطقة وسط شبه الجزيرة العربية لدولة إسلامية صرفة.

وعند هذه النقطة بدأت الدولة الإسلامية تتحول من مجال الدعوة الإقليمية المحلية إلى مجال الدعوة خارج النطاق الإقليمى لوسط جزيرة العرب وبدأت معها الصدامات مع القوى العظمى العالمية فى ذلك الوقت

(فارس والروم وحلفاؤهم فى الجنوب والشمال) ومعها بدأت تدهور للعلاقات بين الإسلام والنصرانية كما سيرد لاحقا.

****

الصدام الإسلامى البيزنطى:

ذكرنا فى الفصل السابق كيف أن المسيحية فى مرحلة من مراحلها قد انقسمت فريقين الأول: منها توحيدى يوحد الله ويؤمن بعيسى عليه السلام كنبى بشرى لا أكثر، وقد كانت هذه الفرقة على مذاهب حواريي عيسى عليه السلام وتلاميذه، وقد كانت أعظم الفرق التوحيدية أتباع آريوس الليبى الذين وصلوا فى فترة من الفترات- منذ أواخر عهد قسطنطين وحتى عهد ثيودسيوس الأول-ليكونوا الفئة الأكثر شعبية بين عموم النصارى، و كانت لتستمر على هذا الحال لولا تدخل أثناسيوس أسقف الأسكندرية و أتباعه من أنصار الفرقة الثانية التى كانت تنادى بأن عيسى هو الله وليس مجرد بشر وبدعم من الإمبراطور ثيودسيوس حوصرت الدعوة التوحيدية المسيحية وتعرضت لأشكال مختلفة من الاضطهاد وتم منعها رسميا فى عام 381م حتى أصبحت أقليات معدودة.

ولعل ما ورد فى قصة إسلام سيدنا سلمان الفارسى كما وردت فى سيرة ابن هشام (وكان سيدنا سلمان قد اعتنق النصرانية لفترة حين كان مستعبدا فى الشام لأحد رعاة الكنائس)عن قول أحد الرهبان النصارى الّذين كانوا

على مذهب التوحيد له و هو على فراش الموت أنه لا يعلم أحد على ما كان عليه من عبادته التوحيدية على قيد الحياة لدليل بليغ على حجم الاضطهاد الذى تعرض له الأريسيين (أتباع مذهب آريوس) على يد أنصار التأليه و عقيدة الثالوث التى نشأت فى نفس العام فى مجمع القسطنطينية المسكونى عام 381م.

و لما كانت دعوة الإسلام قد استتبت إلى حد كبير فى وسط جزيرة العرب و أصبحت قوتها فى ازدياد منذ العام السابع للهجرة (عقب صلح الحديبية) فقد رأى الرسول أن يبدأ بالتعريف و لو البسيط برسالته فى خارج جزيرة العرب عل وعسى يهدى به الله النصارى الّذين طالما كانوا على علاقة ود مع المسلمين.

و فى جمادى الأول من العام الثامن للهجرة (قبيل فتح مكة بأشهر قليلة) بعث الرسول برسالة إلى ملك بُصرى الغسانى يدعوه فيها للإسلام و حملها للصحابى الحارث بن عمير الأزدى و قد تعرض لهذا الصحابى والى البلقاء شرحبيل بن عمرو الغسانى و عندما عرف أنه رسول من عند رسول الله (و كان أمر دعوته قد وصل لمسامع هرقل قيصر الروم نفسه) قام شرحبيل هذا بتقييده و ضرب عنقه غدرا (و العادة على مستوى العالم أن الرسول لا يُقتل فهو مجرد حامل رسالة)، فكانت أول فعلة منكرة من الروم فى حق

الرسـول وشق عليه أن يأتيه هذا الفعل من أقـوام كان يعتقد فيهم الـود و التسامح فقرر الرسـول الانتقام لمقتل مبعوثه فكانت غزوة مؤتة.

وكانت مؤتة أول صدام عسكرى بين المسلمين من ناحية و الروم و حلفائهم من ناحية أخرى ولم يكن الهدف منها السيطرة على أرض أو بسط سلطان، و إنمـا كان هـدفا تأديبيًـا جـزاءً لغـدرهم بمبعـوث الرسـول عليـه الصلاة و السـلام الـذى كان كل ذنبـه أن جـاءهم برسـالة سـلمية لـيس فيهـا أى نيـة للقتال، ولكيلا لا يظنوا بدولة الإسلام ضعفا.

كان الجيش المرسل صغير العدد مقارنة بقوة الروم إلا أنه نجح فى تحقيق الهدف المطلوب منه على الرغم من مقتل قادته الثلاثة الأوائل، فقد خسر الـروم أعـدادًا كبيرة مـن الجنـود بينمـا فقـد المسـلمون ثلاثـة عشـر مقـاتلًا فقط، و أقضوا مضجع هرقل نفسه (قوة صغيرة تلقى الرعب فى قلب أحد أقـوى جيـوش العـالم فى ذلـك الوقـت) فغُـرزت بحادثـة مقتـل الحـارث بـذرة العداء بين الإسلام و النصرانية و أنزل على إثرها الله قوله تعالى:

(قـاتلوا الّـذين لا يؤمنـون بـالله ولا بـاليوم الآخـر ولا يحرمـون مـا حـرم الله ورسـوله ولا يـدينون دين الحق من الّذين أوتـوا الكتـاب حتى يعطـوا الجزيـة عن يد وهم صاغرون) صدق الله العظيم (التوبة، 29).

وكان هذا جزاءً على الصلف و الغطرسة البيزنطية الّذين اعتقدوا دعوة الإسلام مثل ثورات اليهود القديمة أو مثل بدايات الدعوة المسيحية من السهل قمعها بالقبضة الأمنية (نفس الفكر الرومانى القديم).

<u>عام الوفود وبداية الدعوة الإسلامية العالمية:</u>

عقب فتح مكة و الطائف و دخول أراضى عمان و البحرين فى دعوة الإسلام أصبح من المسلم به وجود دولة الإسلام ككيان و أمر واقع و قوة ثابتة على الأرض ما جعل الرسول الكريم يباشر المرحلة الثانية من دعوته (و ما أرسلناك إلا كافة للناس). فأرسل الرسول مبعوثين بكتبه إلى رؤوس القوى العظمى و حلفائهم (إلى كسرى عظيم الفرس و إلى هرقل عظيم الروم و إلى المقوقس عظيم القبط و إلى النجاشى عظيم الحبشة و غيرهم يدعوهم فيها بدعوة الإسلام و يحببهم فيه و يحملهم إثم أتباعهم إن هم أعرضوا عنه).

فأما كسرى فارس فقد مزق رسالة الرسول بكل غطرسة وزاد فى الأمر أن أرسل إلى تابعه باذان والى اليمن (وكانت اليمن قد أصبحت جزءًا من أملاك فارس عقب سقوط دولة الأحباش) يطلب منه القبض على الرسول الكريم و ضرب عنقه (فهو فى رأيه كفر بسلطان فارس على جزيرة العرب، و شق عصا الطاعة على آسياده من الفرس إنها العنجهية و النعرة الشعوبية

التى ستظهر جلية عقب فتح فارس)، ولكن بدلا من أن ينفذ الأمر هداه الله للإسلام فأسلم و أرسل يسلم اليمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

و أما هرقل الذى كان يعرف حق المعرفة بنبوة الرسول، فأرجح الأقوال أن رسالة الرسول إليه كانت عقب صلح الحديبية، وقد دار بينه وبين أبى سفيان حديثًا طويلًا ذكره بن كثير فى البداية و النهاية مفاده كان تصديق هرقل لبعثة النبى مع رفضه الإيمان به خشية على ملكه من الزوال خاصة فى ظل تزايد سطوة أساقفة الكنائس الّذين كانوا على استعداد لخلعه و قتله إن لزم الأمر فى سبيل عدم نشر دعوة التوحيد ثانية بين النصارى (كان صراعهم مع آريوس لايزال ماثلا فى أذهانهم.

وفى رسالته إلى الرسول و المحفوظة فى الديوان الملكى المملكة الأردنية الهاشمية أخبر هرقل الرسول بأنه يصدقه، وأنه النبى الذى بشر به عيسى عليه السلام، إلا أن خوفه من الروم يمنعه من اتباعه ولعل تلك الرسالة كانت المقدمة لحشد الروم ضد المسلمين بدءًا من قتل الحارث بن عمير الأزدى و مرورًا بمؤتة و ما تلاها.

وكان من الطبيعى مع رفض هرقل إعلان إسلامه أن يتبعه المقوقس حاكم مصر التى كانت ولاية رومانية، ولقد كان النجاشى هو الملك النصرانى الوحيد الذى أعلن تأييده للرسول و خاض فى سبيل ذلك مواجهات مع

بطارقته انتهت بنصره حتى مات عام 629م فصلى عليه الرسول عليه الصلاة و السلام.

و مع تكامل وصول ردود الملوك المختلفة على دعوة الرسول عليه الصلاة و السلام بدأت ترتسم ملامح التحالفات و الصدامات الجديدة بين دولة الإسلام و القوى الموجودة على الساحة.

و قد رسم الرسول آخر حدود دولته مع غزوة تبوك التى جهزها لردع حشد الرومان على الحدود بين الأردن و جزيرة العرب، فخرج لهم بثلاثين ألفًا من المسلمين، و مع أنه لم يقاتلهم إلا أن خروجه وحده رجح كفته إذ انسحبت القوات الرومانية من دون قتال.

ثم كان انتصاره الفكرى على نصارى نجران حين أقام عليهم الحجة فى قضية التأليه و هم و إن كابروا و رفضوا الإسلام إلا أنهم وافقوا على تسليم نجران صلحًا و لهم الأمان و العهد و هو ما عُرف تاريخيا بعهدة نجران و التى أقرت دستور التعامل مع غير المسلمين فى حالات الصلح و الحرب (النظام المدنى الإسلامى جاء محاولا لتقريب المثالية إلى أذهان الجماهير يسهل معه تطبيقه على أرض الواقع، و ليس حبسهم فى نطاق تدينى فلسفى فهو يسالم و يحارب و يثيب و يعاقب و يبنى كيان دولة، و لكن كل ذلك محكومًا بمنظومة صارمة من الأخلاق و المراقبة النفسية قبل القانونية مع نظام تعليمي يربى على السمو و الارتقاء و ليس الانحطاط، فهو نظام مدنى

openkanadi.com

تكنوقراطى يجعل الشعائر و العبادات و الأحكام الشرعية سياجًا يحافظ به على منظومة الأخلاق عاملة و مؤثرة حتى لا تنحرف النفوس).

و قد تجلى واضحًا معالم نظام النهج النبوى فى إدارة الدولة فى خطبته يوم حجة الوداع، و التى ذكر فيها أصحابه بمجمل الشرائع و الأحكام و قواعد التعامل بين بعضهم بعضا و الحرص على أرواحهم و ممتلكاتهم و دمائهم و أعراضهم (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، دماؤكم و أموالكم و أعراضكم عليكم حرام) و قد ذكرهم بالآيات المحكمة فى كتاب الله و التى تمثل قواعد التعامل و حذرهم من الفتنة و الفرقة.

و قد كانت خطبة الرسول عليه الصلاة و السلام آخر تجمع له مع المسلمين قبل وفاته فى عام 633م.

و فى عام 633م و عقب وعكة قصيرة ألمت بالرسول انتقل إلى جوار ربه و هو يذكر أصحابه بالعبادات و المعاملات الحسنة لتستقيم أمور دولتهم.

وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم بداية لحلقة جديدة من حلقات الصراع.

****

العالم منذ عام 633-661م

فترة زمنية قصيرة تُقدر بثمانية وعشرين عامًا إلا أن فيها من الأحداث ما يستدعى التوقف والنظر ففيها تعرضت الدولة الإسلامية لانبساط كبير فى مساحتها، ولكنها فى ذات الوقت تعرضت لأصعب محنة فى تاريخها (ليس من حيث حجم الخسائر ولكن من حيث التأثير النفسى العميق الذى قسم الأمة الإسلامية إلى فرق ومذاهب وهيأ لمحنة المسلمين المستمرة إلى اليوم).

ولقد تجسد فى هذه الفترة بوضوح دور ضعاف النفوس والمنتسبين للنظام الإسلامى زورا فى افتعال الفوضى بشتى الطرق من أجل خلخلة الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية.

كما وضح فيها التقاء المصالح بين الفرس واليهود وحتى من النصارى ومن شايعوهم ممن ادعوا زورا انتماءهم لحظيرة الإسلام ممن اجتمعت عندهم كراهية تألق الدولة الإسلامية ونظامها الفعال الناجح مع تربصهم لكل خطأ أو هفوة من قادة الدولة الإسلامية بما يستطيعونه لقلب المواقف لصالحهم.

وكما نجح اليهود فى بث روح الفساد إلى داخل الدعوة النصرانية عن طريق واضع عقيدة المسيحية الأول المعروف ببولس الرسول الذى لم يكن إلا يهوديا فريسيا من المنتمين لطائفة اليهود الإغريق واسمه الحقيقى شاول

obeikandl.com

فقد بثوا فى داخل النظام الإسلامى فيروسًا جديدًا ادعى الإسلام هذه المرة واسمه عبد الله بن سبأ ووجدت دعوته المنحرفة صدى فى نفوس مجوعة من ضعاف النفوس ممن شايعوه على إشاعة الفوضى فى قلب النظام الجديد.

ونحن إذ نعرض للمؤامرة المحنكة فإننا لا نلقى بلائمتها على واضعى المؤامرة فقط فهم ما كانوا لينجحوا لولا أخطاء وقعت من جماعة الإسلام نفسها وإن كانت بدون شبهة قصد أو تعمد.

ولنبدأ بتتبع الأحداث من بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

القوى الموجودة على الساحة:

-إمبراطورية الفرس : والتى كانت لاتزال بها من القوة الشيء الكثير على الرغم من النزاعات الداخلية التى نشبت بها من بعد مقتل ملكهم كسرى شيرويه بن أبرويز على يد ولده أردشير فقد تعاقب على عرش الأسرة الساسانية فى ما قبل وفاة الرسول بعامين وحتى فتح المسلمين لفارس ما يقرب من ثلاثة عشر ملكا وكان الصراع على العرش هو المحرك الرئيسى داخل فارس.

-إمبراطورية الروم الشرقية: والتى كانت فى حالة لا بأس بها من القوة منذ أن تولى هرقل عرشها عام 610م وقد حقق انتصارات كبيرة على الفرس

obeikandi.com

الساسانيين فى عام 629م وكانت الشام و مصر و إفريقية و الأناضول و آسيا الصغرى حتى أرمينيا تحت حكمه كما توجهت بيزنطة فى عهده إلى التوسع شمالا فى أراضى القبائل السلافية من الصرب و البلغار و الكروات مع إرسال مبشرين من قبل البابا لنشر المسيحية بين هذه القبائل، وقد أصبحت هذه الإمبراطورية مهددة مع قيام أول احتكاك لها مباشرة مع الدولة الإسلامية الناشئة كما سبق ذكره.

-دولة المدينة المنورة: و التى نجح رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فى تأسيسها فى المدينة منذ عام 624م ووصلت عند وفاته أن ضمت أغلب قبائل شبه الجزيرة العربية فى نطاق واحد.

-ماوراء نهر السند: وهى ممالك الهند المختلفة و التى لم يبدأ دورها العصور الوسطى إلا متأخرا (و إن كان تأثيرها الثقافى قديمًا منذ عهد الإغريق).

-إمبراطورية الصين: و شأنها شأن الهند لم يبدأ تأثيرها إلا فى وقت متأخر من العصور الوسطى.

-أوروبا الغربية : و التى تفككت عقب انهيار إمبراطورية روما الغربية إلى ممالك متفرقة من جرمان وساكسون و فرنجة و قوط غربيين، أما السلطان الروحى الذى كان يجمع كل هذه الممالك فى سياق واحد كان هو

سلطان كتادرائية سان بيتر (الكنيسة البطرسية) و التى كانت المركز الرئيسى للدولة البابوية فى الفاتيكان الإيطالية.

و الآن إلى قلب الصراع من جزيرة العرب.

****

دولة الخلافة و حروب الردة (633-634م) :

كانت وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام صدمة كبيرة على أصحابه و أتباعه الّذين عايشوا معه أصعب اللحظات و أحلكها، ثم أبهى المواقف مع تحولهم ليكونوا القوة الكبرى فى شبه الجزيرة العربية بعد أن كانوا حفنة من المُضطهدين و المُطاردين.

و لكن مع وفاته أيضا تنبه أصحابه إلى أهمية إيجاد حاكم يجمع كلمة هذه الدولة حتى لا ترتد الدولة من بعد الرسول إلى النظام القبلى مرة أخرى.

و كان الاجتماع فى سقيفة بنى ساعدة صبيحة اليوم التالى لوفاة الرسول عليه الصلاة و السلام بهدف اختيار قائد لسفينة الإسلام و قد رشح الأنصار سيد الأوس و الخزرج فى هذا الوقت سعد بن عبادة، إلا أن أبا بكر الصديق و عمر بن الخطاب و أبا عبيدة بن الجراح (رضى الله عنهم جميعا) الّذين نما إلى علمهم تجمع الأنصار فى السقيفة قد لحقوهم و تناقشوا معهم فى الأمر ليخلصوا فى النهاية إلى نتيجة واحدة و هى تولية أبى بكر

الصديق رضى الله عنه أمر المسلمين لسابقته المعروفة فى الإسلام ورجاحة عقله، فقد كان بمثابة الوزير لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد تولى أبو بكر المنصب وجزيرة العرب تموج بأحداث عظام، فقبائل العرب التى كانت حديثة عهد بالإسلام ونظامه وتعاليمه أو دخلت فيه بتبعية رضوخ قريش التى كانت العظمى فى وسطهم لسلطان المسلمين، بدأت تطل منها رغبة فى الرجوع عن بعض أو كل تعاليم النظام الجديد، كأنما استثقلوا القيام بالنظام أو استكبروا الرضوخ إلى حكم أبى بكر و استضعفوا شوكته (فمواجهة رجل بشرى عادى مجتهد يصيب ويخطئ أيسر عليهم كثيرا من مواجهة رجل كان مؤيد بوحى وسلطان من السماء- كان هذا فى الغالب هو منطق قبائل العرب فى ذلك الوقت)

وعليه انقسمت قبائل العرب إلى فريقين، الأول منهما: استثقل دفع زكاة المال إلى بيت مال المسلمين واعتبروها ضريبة كانت تُدفع لرسول الله و انقضت عنهم بوفاته، وكان هذا إنكارًا صريحًا منهم لركن أصيل من أركان الدين وإخلالا بحق واضح من حقوق النظام الإسلامى على أتباعه فسُميت هذه القبائل مانعى الزكاة.

أما الصنف الثانى: فقد ذهب بهم الشطط إلى المدى الأبعد فتصوروا أن بإمكانهم أن يرثوا النبوة والرسالة لاعتقادهم الخاطئ بأن الرسالة إنما هى السيادة والشرف والفخر لحاملها (مع عدم القيام بمسئولياتها الثقيلة و

لا المرور باختباراتها العسيرة) فادعت مجموعة منهم النبوة كذبًا وزورا (فمحمد كان خاتم الرسل و الأنبياء أجمعين) و بدأوا بالدعوة لذلك فى وسط أقوامهم فأجابتهم مجموعة من القبائل وكان أشهر دعاتهم الأسود العنسى فى اليمن و مسيلمة الكذاب فى أرض اليمامة (و الأخير هذا بدأ بدعوته قبل موت الرسول بفترة قصيرة).

وقد لعبت هنا النعرات القبلية دورًا مهمًا فى انتشار دعاوى الردة انتشار النار فى الهشيم حتى لقد أصبحت المدينة مهددة من كل جوانبها بأعداء يريدون القفز النظام الصحيح و منعه من الانتشار.

و مع كل تلك الأخطار كانت ترد إلى المدينة أنباء عن حشود من الروم و الفرس على حدود الجزيرة مع الشام و العراق للفتك بالدعوة الجديدة أيضا.

كان موقف الخليفة أبى بكر حاسمًا و صارمًا (و هو المعروف عنه الرقة و اللين، ولكن ليس فى أمر الدين و المدينة مقدمة على أخطار ماحقة تهدد بقاءها) فقد استطاع الخليفة بالدبلوماسية القوية تارة و الدهاء تارة و القوة تارة أن يبعد الخطر عن المدينة المنورة وكانت البداية بإنفاذه بعث أسامة لحرب الروم و الذى وجه به رسالة قوية إلى القبائل أن المدينة قوية و ليست ضعيفة ثم دحر عدوان عدد من القبائل على حدود المدينة، خرج فيها لصدهم بنفسه، و أعقب ذلك بتسيير إحدى عشر جيشا إلى مناطق

الفتنة فى اليمن وتميم وأرض اليمامة فتمكن بحسن التدبير وسرعة التصرف من ردهم جميعًا إلى حظيرة الدولة الإسلامية مرة ثانية .

ومع تمكن الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه من توطيد حكم نظام الإسلام فى شبه الجزيرة العربية التى أصبحت كلها دولة موحدة تحت حكم الخلافة. بدأ الخليفة ينظر إلى ردع الحشود الرومية والفارسية التى تحتشد على الحدود الشمالية للجزيرة العربية فى الحيرة وفى مملكة الغساسنة.

وبنفس الحزم الذى أدار به الصديق رضى الله عنه حروب الردة أصدر أوامره إلى أقرب الجيوش إلى أرض فارس وهو جيش القائد الفذ خالد بن الوليد رضى الله عنه بالتوجه لمنازلة الفرس ومن والاهم من عرب الحيرة حتى يستفتح بهم عراق العرب (أو بلاد العراق القديم) ويأمن شر الفرس.

<u>فتوحات العراق والشام:</u>

انطلقت أربعة جيوش من المدينة كلهم من خيار المسلمين وممن لم يرتدوا حتى ولو عادوا (كان هذا من الفطنة حتى يتبين للخليفة من أمرهم).

وبنفس سرعة القضاء على حركة المرتدين استطاعت جيوش المسلمين أن تعبر أراضى العراق وتهزم حاميات وجيوش الفرس المتمركزة فى العراق و

تحقق انتصارات متوالية حتى تمكنوا من فتح الحيرة و الاستيلاء على قصرها الأبيض.

و في نفس الوقت تحركت جيوش المسلمين إلى تخوم الشام حيث اشتبكت مع جيوش الروم و حققوا عليها عدة انتصارات مدوية كان آخرها في عهده هي معركة أجنادين و قد انتصر فيها المسلمون نصرا كبيرا.

و عند هذه النقطة كأن الخليفة قد اشتاق إلى رفيقه صلى الله عليه و سلم فلم يلبث أن رحل عن العالم بعد عام واحد قضاها في توطيد سلطان الدولة و تثبيت منهج الرسول صلى الله عليه و سلم في العقول و الصدور.

و مع وفاة الصديق رضى الله عنه عام 634م ترك أمر المسلمين لخليفته من بعده فاروق الأمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

و مع تولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر المسلمين كان الفرس قد شمروا عن سواعدهم و توحدوا حول ملك جديد هو يزدجرد الثالث بن شهريار و جمعوا عموم جيوشهم تحت قيادة أحد أعظم قادتهم و اسمه رستم لكسر شوكة المسلمين إلى الأبد فجيش الخليفة عمر بن الخطاب جيشا قوامه ثلاثون ألف مقاتلًا جعل على رأسهم سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

واشتبك جيش المسلمين مع الفرس فى موقعة القادسية عام 636م التى انتصر فيها المسلمون نصرًا ساحقًا سقطت معه المدائن الدنيا عاصمة الفرس العراقية في يد المسلمين.

وفى نفس العام اشتبك جيش المسلمين فى الشام بقيادة كل من خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما مع جيوش الروم فى موقعة اليرموك الحاسمة والتى سحق فيها جيش المسلمين جيوش هرقل فى الشام، وفتحوا معها طريق الجيوش المسلمة حتى بيت المقدس.

استمرت جيوش المسلمين في التقدم على كلا الجبهتين بمنتهى السرعة حتى تمكن المسلمون من فتح المدائن القصوى فى داخل الأراضى الفارسية نفسها، كما نجحوا فى فتح بيت المقدس (التى كانت معروفة ببيت إيلياء الكابيتولينية منذ عهد هادريان الذى كان قد دمر بيت المقدس القديمة بعد ثورة اليهود الثالثة كما ذكرنا سابقا) حيث استلم مفاتيحها الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه.

وفى عهد الخليفتين أبو بكر وعمر رضى الله عنهما كان النظام سائر على النهج النبوى بشكل كامل وبطريقة لا يصدقها عقل من حيث الدقة و العدل حسن التدبير والحزم بشكل ضمن لكل مسلم حقه.

كما كان الالتزام بمعايير القانون الإلهى و التعامل الأخلاقى حتى مع العدو التزامًا كاملًا وضح جليا فى رسائل كل من الخليفتين إلى قادة الجيوش لحثهم على حسن الأخلاق و الالتزام بوصايا الرسول فى الحرب و إظهار أخلاق الإسلام كاملة أمام الناس وعدم إكراه الناس على الدين أو اضطهادهم فكريا أو ما شابه ذلك. فكان بذلك دعوة صريحة ساهم بها فى إدخال الناس أفواجا لاعتناق الدين الإسلامى.

وكان واضحا الفرق بين عمر بن الخطاب و قياصرة الروم فى تعامله مع أهل البلاد المفتوحة فكريًا وعقائديًا (وضح ذلك جليًا فى عهدة عمر لنصارى بيت إيلياء و من بعدهم نصارى مصر من حيث أمنهم على حياتهم و أموالهم و حرية كنائسهم و صلبانهم وعدم الإضرار بأى منهم و ألا يساكنهم أحد من اليهود حيث كان العداء مازال مستحكما بين اليهود و النصارى، و كان لعن اليهود جزءًا من الصلوات النصرانية)

و باتت المدينة فى عهد عمر بن الخطاب مركزًا مشعًا للعدل و الرحمة، كما أضحت الجيوش الإسلامية أسطورة بأنها لا تُقهر، و تهيب الكل منهم، فكيف عساهم يغبون قومًا لا يسألوا مالًا و لا يُكرهوا أحدا على دينهم؟ و يتعاملون مع العدو بالعدل و مع الحليف بالفضل و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة ويقبلون على الموت فى سبيل الحق كما يقبل أعداؤهم على الحياة فى الباطل.

بحث أعداء النظام الجديد الذى أضحى عالميًا وفرض نفسه على القاصى والدانى فى كل السبل فلم يجدوا حلًا إلا ضرب هذا النظام فى القلب المُشع وبسياسة النفس الطويل والتربص واستغلال الخطأ. فكانت المؤامرة الكبرى على الإسلام والتى بدأت بمقتل عمر رضى الله عنه.

الفوضى الكبرى

مع تولى الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمور دولة الخلافة عام 634م وتحقيق الجيوش الإسلامية لانتصارات مدوية أدت إلى سقوط جزء كبير من الدولة الفارسية (العراق القديم كله وجزء من إيران) وجزء كبير من الدولة البيزنطية (الشام ومصر) فى يد الدولة الإسلامية الناشئة. فقد بدت الدولة الجديدة خطرًا على النظام العالمى القديم بكل عناصره.

وقد زاد من خطورة النظام الإسلامى قدرته المذهلة على استقطاب جموع كبيرة من شعوب البلاد المفتوحة نتيجة لقواعده الأخلاقية فى التعامل و العدل بشكل كامل بين المسلمين وغيرهم وتطبيقه العهود والمواثيق على أرض الواقع، وليس فقط على الورق (كانت القاعدة الأساسية فى الدين أن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل، فكان لابد أن يطابق الفعل قول صاحبه ليكون مؤمنا وانعكس ذلك على معاملات المسلمين مع غيرهم والتزامهم بالكلمة والعهد والعدل).

ومع التزام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنهج معلمه الأول محمد صلى الله عليه وسلم ثم من بعده خليفته الصديق وزاد عليه من البصيرة وتنظيم دواوين الدولة والرشاد فى اختيار الرجال الأكفاء للمعاونة مع تواضع عظيم مع الناس جميعًا (تجلى ذلك يوم فتح بيت المقدس عندما دخلها على بغلة رافضًا أن يكون له شيء من مواكب الملك) أصبحت المدينة فى عهده مركزًا إشعاعيًا نورانيًا يبسط تعاليم أخلاقية سامية وعدالة لم تشهدها النظم العالمية القديمة.

هذا النظام الذى أكل عروش نظم دأبت على الصراع من أجل الثروة و السطوة و السيطرة على موارد الأرض بأى شكل و تسلطت على رقاب البشر قرونًا طويلة من الاستعباد و الظلم و الاضطهادات أصبح خطرًا حقيقيًا على هذه النظم القديمة بوثنييها و نصرانييها و يهودها.

و لأول مرة فى التاريخ تتوحد أغلب النظم العالمية على فكرة واحدة فقط (لابد من القضاء على خطر تلك الدولة).

فمنذ عهد بعثة إبراهيم عليه السلام لم تجتمع أهداف إمبراطوريات و جماعات بشرية على إسقاط فكرة أو دولة كما حدث فى توحدهم على فكرة القضاء على الإسلام.

حتى فى عهد انتشار النصرانية فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية وجدنا أن الفرس على الصعيد الآخر لم يشنوا عليها هجومًا شديدًا بنفس شدة الرومان، وكانوا تاركين أمر الصراع وتدبير المكائد لليهود.

وربما كان ذلك؛ لأن النصرانية كدعوة كانت دعوة إصلاحية خاصة باليهود فقط (وتحديدا الفساد الكهنوتى) واضطرتها الظروف مع الاضطهاد و التعذيب للفرار من بقعتها إلى مناطق أخرى ونتج عن احتكاكها مع البيئات الأخرى انتشارها.

أما الإسلام فقد كان دعوة عالمية منذ أن نشأ وكان فى هدفه منذ البداية الانتشار فى كل بقاع الأرض لهداية البشرية جميعًا وردها إلى النظام الإلهى الأصيل، وتجلى ذلك واضحا بعد تثبيت أقدامه فى الجزيرة من رسائل الرسول إلى ملوك العالم، فكأنما كان يخبرهم أن فكرتى قادمة إليكم لا محالة فكان أن ناصبتها هذه القوى التى استشعرت تهديدها العداء الشديد.

ولأن الإسلام بدأ يسحب القاعدة الشعبية من بين أيدى نخب العالم القديم بتعايشه معهم وتشجيعهم على الدخول فى فلك النظام الجديد العادل فقد قررت هذه النخب إسقاطه بأى ثمن ولكن كيف؟

كيف يمكن إسقاط نظام لا يطمع فى مورد ولا يستعبد إنسان ولا يضطهد فكرة ويطبق القانون على القوى قبل الضعيف ولا يحابى فى قرابة أو نسب؟

كان الصدام العسكرى مع قوة الإسلام الجديدة فشل ذريع على كافة الأصعدة والجبهات فالمسلمون مقاتلون أشداء ولديهم قيادات حكيمة تحسن استغلال أراضى المعارك بمهارة لم يتخيل صناديد الفرس والروم أن للبدو العرب مثلها.

وعدالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وحسن إدارته لمرافق الدولة، مع مشورته لأهل العقول من صحابة الرسول الكريم، وعدم استبداده بالرأى دونهم جعلت مهابته تطير فى آفاق الدنيا وجعلت من المدينة جبهة داخلية لا تتزعزع.

ومن داخل المعضلة انبثق الحل الخبيث.. لسان حالهم كان يقول لا يجب أن نعمل على إسقاط الدولة مباشرة وإنما لابد من جرها عبر سلسلة طويلة من الخطوات لتخرج بنفسها عن النهج النبوى وتتحول إلى لاعب آخر من المتصارعين على الموارد والثروات، فإذا نجحنا فى تلك الخطوة سهل بعد ذلك زعزعة جبهتها الداخلية، فإذا سقطت الجبهة الداخلية سقطت الدولة العظيمة كلها.. كم سيستغرق عمل ذلك؟ كل الوقت اللازم وكل الموارد اللازمة المهم أن يسقط هذا النظام.

و أين يمكن أن تكون الضربة الأولى؟ يجب أن تكون فى القلب المشع ذاته و أول خطوة كانت كسر الباب المنيع.

ولم يكن الباب المنيع إلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وكان ذلك بداية تبلور مشروع الفوضى العالمية التى التقت فيها مصالح الأعداء ولو بشكل جزئى.

ولنعرض ذلك بشيء من التفصيل .

بسم الله الرحمن الرحيم (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) صدق الله العظيم (النساء، 89).

<u>الضربة الأولى (عملية كسر الباب المنيع):</u>

كان عمر رضى الله عنه قد ثبت أركان دولة الإسلام فى جزيرة العرب و الشام و مصر و العراق وكانت جيوشه لا تزال تنازل جيوش الفرس و الروم على ثغور إيران و إفريقية و تحقق النصر تلو الآخر عليهم و تستفتح بهم البلاد.

وكان رضى الله عنه قد أجلى يهود المدينة من خيبر و فدك إلى الشام عملا بحديث الرسول عليه الصلاة و السلام قبل موته (لا يجتمعن دينان فى

obeikandl.com

جزيرة العرب) و ذلك بالتأكيد كان حرصا على سلامة الدولة الجديدة من ألاعيب اليهود التى اختبرها الرسول معهم طوال فترة حياته. فمن أسلم منهم ظل فى المدينة و من لم يسلم رحل إلى الشام.

وكان مما فتح الله على المسلمين من البلاد منطقة الأحواز فى إيران وكان ملكها الهرمزان قد صالح المسلمين عدة مرات ثم نقض العهد فلما تمكنوا منه أرسلوه إلى المدينة ليرى أمير المؤمنين عمر فيه الأمر.

وقد ورد فى غير موضع من كتب المؤرخين أن الهرمزان قد أسلم و إن كان لم يتثبت أحد من صحة إسلامه فقصة إسلامه تبين أنه ما أسلم إلا ليُفلت من عقاب الخيانة و نقض العهد (فالنطق بالشهادتين وحدهما كانتا كفيلتان بحفظ دمه من القتل، وليس للمسلمين التفتيش فى خفايا الصدور) و قد ظل الهرمزان مقيمًا فى المدينة حتى مقتل عمر.

وكان فى آخر عهد عمر أن منع إقامة المشركين البالغين فى حرم المدينة تحصينا للمدينة من المؤامرات (لم يمنع هذا بالطبع من دخول رعايا الدولة من أصحاب الشكايات و غيرهم فى زيارات للمدينة. ولكن لا يمكثوا فيها حتى لا يختبروا مواطن القوة و الضعف فيها).

ولكن بقضاء الله النافذ أقام بعضهم فى المدينة ممن قد ينتفع المسلمون من خبراتهم وكان منهم غلام لوالى الكوفة المغيرة بن شعبة اسمه فيروزو

كنيته أبو لؤلؤة وكان مجوسيا من أهل فارس أدخله إلى المدينة بإذن عمر؛ لأنه كان حرفيًا متمرسًا يجيد عدة صناعات قد تنفع المسلمين (العبرة فى دولة الإسلام الأولى كانت بالكفاءة وليس العرق).

وقد كان هذا المجوسى هو من سدد ضربة القتل إلى عمر رضى الله عنه فى صبيحة يوم السابع من نوفمبر عام 644م عندما كان يؤم الناس لصلاة الفجر.

قد يعتبر الكثيرون هنا هذا العمل حدثًا فرديًا من شخص كاره لعمر بن الخطاب أو كما يروى البعض أنه قتله حنقًا؛ لأنه لم يخفف عنه الضريبة التى كان يدفعها لبيت المال (وياللسخرية إذ يقوم رجل بقتل رأس الدولة من أجل درهمين كان يؤديهما لبيت المال).

ولكن جميع المؤرخين يذكرون رواية استندوا بها لشهادة عبد الرحمن ابن أبى بكر رضى الله عنه أنه رأى أبو لؤلؤة هذا ومعه الهرمزان ورجل يدعى جفينة من نصارى الحيرة وكانوا يتناجون فلما باغتتهم رؤيته اضطربوا فسقط من وسطهم خنجر ذو نصل متشعب وهو نفس الخنجر الذى قتل به أبو لؤلؤة عمر رضى الله عنه.

فإذا أضفنا واقعة إسلام الهرمزان نفسه (وهو من نخب الفرس الحاكمة فى ذلك الوقت وثبتت خيانته العهد وقتل أناس من أسرى المسلمين غدرًا

بعد الصلح) و التى كان من الواضح أنه أتاها حتى لا يقتله المسلمون (و علم ذلك عند الله أيضا فنحن لا نفتش فى الخبايا و إنما نستنتج منطقيًا) فإننا نستطيع أن نشم هنا رائحة مؤامرة دُبرت للقضاء على رأس الدولة الإسلامية تمهيدا للمرحلة التى تليها.

و قد نجد فى هذه الحادثة أيضا كيف تعامل المسلمون بناءً على المعيار و ليس الهوى، فعندما علم عبيد الله بن عمر بمقالة عبد الرحمن ابن أبى بكر ثارت ثائرته فقتل الهرمزان و جفينة و لؤلؤة ابنة فيروز المجوسى على اعتبار أنهم متآمرين على قتل أبيه.

و لكن لأن إقامة البينة تلزم رجلين عدول على الأقل يثبتوا صراحة اشتراك الهرمزان و جفينة فى التدبير و لما لم يكن هناك بينة فقد حبسوا عبيد الله حتى يحكموا فى أمره إما بالقتل؛ لأنه قتل مسلمًا (و إن كان ظاهريا فقط) و إما بالفداء و قد اختلف الصحابة هنا تبعا لمقالة ابن أبى بكر و رأوا أن يتركوا الأمر لخليفة المسلمين الجديد، فلما ولى عثمان رضى الله عنه الأمر دفع بعبيد الله لابن الهرمزان (كما ورد فى تاريخ الطبرى) و خيره بين العفو أو القصاص فاختار العفو (و لا أعتقد أن ابن الهرمزان كان ليعفو لو كان أبيه بريئًا خالصًا فهذا يطرح تساؤلا أيضا عن دور الهرمزان فى المؤامرة من عدمه) و لقد كان قرار العفو هذا من بين ما أخذه دعاة الفوضى على عثمان بعد ذلك فى فتنة مقتله رضى الله عنه.

والخلاصة أن عملية كسر الباب المنيع كانت الطلقة الأولى، وأُطلقتها نخبة فارس فى معركة زعزعة جبهة المسلمين الداخلية، وبدأ التخطيط للمرحلة التالية مع ولاية أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه.

الضربة الثانية (عملية ثورة الرعاع):

فى عام 644م وفى أثناء احتضار عمر بن الخطاب رضى الله عنه أوكل عمر إلى الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه مهمة تجميع الستة الباقين من المبشرين بالجنة وهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله إضافة إلى عبد الرحمن بن عوف نفسه للتشاور لمدة ثلاثة أيام فيمن يكون الأصلح بولاية أمر المسلمين وقد اتفق الرأى فى النهاية على تولى عثمان بن عفان رضى الله عنه أمر الخلافة.

كان سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه على إثر صاحبيه السابقين، يعمل على تثبيت الدولة الإسلامية فى كل الأقطار وفى سبيل ذلك كان له نهجين:

-أما الأول: فكان مع العدو الصريح الّذين هم جيوش الفرس والروم التى لم تزل تعمل إسقاط الدولة عن طريق الصدام العسكرى المباشر من قواعدها المتأخرة (كان الفرس لا يزالوا يتحكموا فى أقاليم كثيرة فى آسيا الوسطى من أذربيجان إلى الهند، واتخذوا من سمرقند قاعدة لتجميع

الجيوش ضد الدولة الإسلامية، بينما كان الروم يستخدمون مستعمراتهم فى إفريقيا و جزر البحر المتوسط كقواعد لأساطيلهم البحرية للهجوم على الثغور البحرية للشام و مصر) فكانت النتيجة أن سيّر أمير المؤمنين عثمان بن عفان لهم الجيوش فى بر فارس و اشتبك الأسطول البحرى الإسلامى مع أسطول الروم فى معركة ذات الصوارى و دمر فيها أسطول دولة الخلافة أسطول الروم و أصبحت السيطرة البحرية فى البحر المتوسط لدولة الخلافة. كما انطلقت الجيوش الإسلامية تفتح مستعمرات البربر الرومية فى إفريقية حتى وصلوا لتونس.

-أما على الصعيد الداخلى: فقد اجتهد عثمان بن عفان رضى الله عنه نهجا اعتمد على سياسة التسامح المطلق مع قبائل العرب فى الجزيرة، فأطلقهم فى البلاد و سمح لهم بالانتشار فى البلاد المفتوحة و الاختلاط بأهلها سواء من عرب العراق أو بلاد الشام و مصر.

-كما انتهج الخليفة سياسة مالية منفتحة مع مواطنى دولته مع ازدياد موارد الدولة بشكل كبير جدا حتى أن الأموال و العطايا و الهبات كانت تتوزع بشكل كبير على أهل الدولة (ورد فى تاريخ الطبرى كيف كان المنادى ينادى فى الناس صباح كل يوم أن أغدوا على أرزاقكم و أغدوا على أموالكم إلى غير ذلك من الأمور التى تدل على الثراء).

obeikandi.com

وفيما يتعلق بالصعيد الداخلى لابد أن نتوقف لنقارن تعامل عثمان بن عفان رضى الله عنه مع المواطنين فى دولة الخلافة بتعامل صاحبيه السابقين على النحو التالى:

-كان أبى بكر الصديق رضى الله عنه قد ابتدأ خلافته كما ذكرنا بحرب المرتدين والضرب على أيدى دعاة الفوضى من قبائل العرب المختلفة، و بعد أن استتب له الأمر وعادت القبائل إلى حظيرة الجماعة انتهج معهم سياسة حذرة فلم يكن يسمح لهم بالانتشار فى أى من المدن المفتوحة، كما لم يُشركهم فى معاركه ضد الفرس والروم (وللرجل كل الحق فهم ليسوا بعد مأمونين الجانب فما يُدريه أن ينقضوا عهده ويمالئوا عدوه عليه).

كما كان يضع قريش وسادتها تحت سمعه وبصره (نقصد بذلك كل من أسلم منهم بعد الفتح) فهم وإن كانوا أسلموا وحسُن إسلامهم، إلا أنهم لم يكونوا يمتلكوا نفس قدرة الصحابة الأولين من المهاجرين والأنصار على الصبر عن الإغراءات والأطماع الدنيوية فكانوا عُرضة لأن يضعفوا أمام سلطان الموارد ومفاخر المُلك فيكونوا بذلك سببا لإضطراب الأحوال فى البلاد.

-وعلى نفس نهج الصديق سار عمر الفاروق شبرا بشبر وذراعا بذراع، إلا أنه كان قد فتح ولو بشكل قليل الباب لانتشار محدود للقبائل فى البلاد، و من ضمنهم بالتأكيد قبائل قريش ولكنه كان شديد المراقبة صارم فى

obeikandl.com

المعاملة مع أى إخلال منهم بالنظام العام ربما أكثر مما كان قد يتعامل مع أهل البلاد المفتوحة (فى قصة ضربه لابن عمرو بن العاص رضى الله عنه لمصلحة الرجل القبطى أبلغ دليل على حزمه معهم حتى لا ينفلت الزمام). و كان يحرص على عدم تمكينهم من الأموال بل كان جاعل الموارد فى أيدى أبناء البلاد المفتوحة بشكل شبه كامل مع التعويض على المسلمين عن طريق ما يدخل لبيت المال من الخراجات و الموارد و الغنائم فكان يُجرى لها بهم العطايا فيكفيهم مؤونة السؤال ويحقق معه لهم عدلا لا يجعلهم من الأثرياء و فى نفس الوقت لا يحوجهم إلى أحد (عهد الفاروق و الصديق كان عهد تقسيم الموارد على الفقراء و تقوية بنية الدولة).

-أما فى عهد عثمان رضى الله عنه فقد رأى أنه مرت فترة كافية على قبائل المرتدين وعلى قريش تحت المراقبة و الحوط منهم فلا داعى للتضييق عليهم ففتح لهم الباب على مصراعيه للانتشار فى البلاد المفتوحة و التعايش مع أهلها بشكل كامل، وكان يمنحهم ويعطيهم قاصدا بذلك تأليف قلوبهم و صهرهم بشكل كامل فى منظومة الدولة الإسلامية الجديدة خاصة مع ازدياد موارد الدولة بشكل كبير ما سمح له بإجزال العطايا و توزيع الهبات. (و هو فى ذلك لم يُخطئ فهو سائر بين الرعية بسيرة العدل كسابقيه وزاد عليها التوسعة عليهم بأن الله قد وسع على الدولة مواردها فهو لم يستبد بأموال الدولة كما عابوا عليه بعد ذلك). وقد كانت سياسة عثمان

التسامحية العالية سببًا فى انتشار محبته بين الرعية حتى لقد تغنى بعض الشعراء بمحبته لفضله و سخائه على الناس.

ولكن لم يدر بخلد أمير المؤمنين أن تسامحه المطلق مع رعايا الدولة بهذا الشكل مع تخليه عن الحذر ولو كان محدودا سيكون هو الباب الذى يستغله دعاة الفوضى لشق صف الأمة و شرخها شرخا لا يلتئم.

فالقبائل التى خرجت من جزيرة العرب و انتشرت فى البصرة و الكوفة و الحيرة و فسطاط مصر لم تكن كلها على الولاء التام لا للخليفة ولا للدين بشكل عام فقد كانت جماعات منهم تحركهم الأطماع للثروة و السلطة و كانوا فى خروجهم مع الجيوش يخرجون فى بعض من الأحيان عن أخلاق الإسلام فى التعامل فيضج منهم أهل البلاد ويصل الخبر للخليفة فيأمر بالعقاب، فبدأت تتكون فى البلاد المفتوحة بؤر التقى فيها الحانقين على الخليفة من ضعاف النفوس الّذين ساءهم تأديب أمير المؤمنين لهم على مخالفات لهم فى حق الناس مع دعاة الفوضى ممن يخططون لجر الدولة للسقوط، و الّذين وجدوا فى ضعاف النفوس نواة المرحلة التالية من خطة افتعال الفوضى فى دولة الإسلام و جرت بين الفريقين مكاتبات و مراسلات ولقاءات للتجهيز حتى كان التحرك فى عام 655م.

-تأمل معى عزيزى القارئ صبر الفوضويين من دعاة النظام القديم ما يقرب من ثمانى سنوات يراقبون فيها أرجاء الدولة من الداخل بينما هى

تتوسع من الخارج (يكون التوسع الخارجى دائما مصحوب بقلة الحذر داخليا لاعتقاد رؤوس الدولة أن البلاد محصنة داخليا وهذا هو عين الخطر فالعدو دائما عندما يضرب يختار ضرب المكان الذى لا يمكن توقعه) وعندما بدأوا فى التخطيط والتحرك اختاروا الأماكن الجديدة التى لم تتمكن منها عقيدة الإسلام بشكل كامل بعد، وبدأوا فى التخطيط منذ عام 652م (ثمانى سنوات من المراقبة وثلاث سنوات من التخطيط).

وكما كان الفرس هم أول من أطلقوا شرارة الفوضى باغتيال الفاروق كان ضعاف النفوس من العرب هم المطلقون لثورة الغوغاء، وكان ذلك بتنسيق يهودى من الشخصية المثيرة للجدل عبد الله بن سبأ.

<u>أحداث الفتنة الأولى واستشهاد عثمان بن عفان رضى الله عنه (655-656م):</u>

المتأمل لأحداث الفتنة يرى أنها بدأت من بقاع ثلاث بشكل متزامن تقريبيا (فى كل من البصرة والكوفة ومصر مع وجود محاولات لإثارتها فى الشام) فقد حاول عبد الله بن سبأ هذا تأليب الناس على السياسة المالية لأمير المؤمنين بدعوى أنه يستبد بالمال يعطى نفسه الحق فى الصرف منه كيفما شاء من دون رقيب (وهو ما ذكرنا سابقا أنه كان كلاما عاريا من الصحة فقد كان الخير وفير فى أرجاء الدولة وأمير المؤمنين عثمان كان يسير فيه بسيرة عمر فى الاهتمام بالفقراء والضعفاء مع تأليف قلوب قريش وغيرها

obeikandl.com

من القبائل عن طريق الهبات و العطايا فهو يستعين بهم على أمور الدولة) وكانت تلك أول محاولة لابن سبأ فى الشام فى عام 651م ولكنها لم تنجح فى تأليب العامة على معاوية ابن أبى سفيان والى الشام الذى كان يحظى بشعبية كبيرة هناك لحسن إدارته لأمور الرعية.

ثم كان لقاء بن سبأ مع الحانقين على الخليفة فى العراق فى كل من البصرة و الكوفة و الذى ادعوا فيه على الوليد بن عقبة بن معيط بأنه أمهم إلى الصلاة و هو مخمور و استدلوا على ذلك بأنهم تمكنوا من خلع خاتمه؛ لأنه كان مخمورا (و مع وصول الخبر إلى الخليفة قرر عزله فورا و عاقبه بحد الخمر، وقد سبق أمير المؤمنين أن فعل ذلك مع أحد ولاته دون الحاجة للثورة).

ثم استغلوا مشاحنة حدثت بين والى الكوفة سعيد بن العاص وبين بعض أهل الكوفة حين ادعى أن السواد (أى أرض العراق) بستان قريش (وهذه الكلمة يمكن أن تحتمل تأويلات كثيرة كأن تكون زينة لقريش وليس ملكا خالصا لها) فقد كانت هذه الزلة كفيلة بالتشاحن و التباغض بين سكان بلد كانوا حتى عهد قريب سادة على العرب فأثارت حميتهم عليه و طلبوا عزله.

و مع انتقال بن سبأ لمصر بدأ فى الإتصال بالحانقين من القبائل فى مصر و شحنهم ضد والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح بحجة أن ماضيه فى

الإسلام لم يكن مشرفًا، وأنه كان قد ارتد ثم رجع إلى الدين وهو بهذا لا يصلح كوالى (المُلاحظ هنا أن بن سبأ كان كلما نزل ببلد من هذه البلاد كان ينزل على شخوص من قبائل يمنية ممن كان لهم دورًا فى حروب الردة ضد أبى بكر واستقروا بعد ذلك فى عهد عثمان فى العراق وفى مصر، وهؤلاء الأشخاص كانوا هم القادة المحركون للثورة ضد عثمان رضى الله عنه بعد ذلك) (راجع تاريخ الطبرى وعبقرية عثمان لعباس محمود العقاد والعواصم من القواصم وعبد الله بن سبأ لسلمان العودة).

ومع تزايد الاحتكاكات والمشاحنات فى أمصار مصر والبصرة والكوفة و تنامى أخبارها إلى مركز البلاد فى المدينة المنورة؛ ولأن أمير المؤمنين لا يريد أن يظلم أى من العباد فقد أرسل مجموعة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأمصار المختلفة للوقوف على المظالم المرفوعة وبيان ما إذا كان هناك مظلمة من عدمه.

ولقد أقام الصحابة البراهين على المُحتجين، وبينوا لهم افتراءاتهم على أمير المؤمنين وقد مال إليهم كثير من العامة ممن كانوا استثارتهم كلمات المشاغبين من المتآمرين.

ولما رأى المتآمرين أن الفرصة قد تفوتهم فقد عقدوا العزم على تجميع أنفسهم والزحف على المدينة نفسها بحجة عرض شكاواهم على الخليفة (لاحظ هنا قرروا جميعا الزحف من البصرة والكوفة ومصر فى وقت واحد

وهو إن دل على شيء فيدل على وجود صلات بين تلك الجماعات ووجود مكاتبات بينهم للتنسيق على الزحف مرة واحدة على المدينة).

وفى عام 656م زحفت جماعات الثوار فى ما يقرب من ألف إلى أربعة آلاف رجلًا إلى المدينة وهناك دارت بينهم وبين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه مناظرات طويلة اتهموه فيها بمحاباة أقاربه وتمكينهم من الولايات الاستراتيجية فى الدولة (كانت مصر والشام والكوفة والعراق تحت حكم أربعة من بنى أمية من أقارب سيدنا عثمان بن عفان، ونلاحظ أن مصر والشام كانت تحت غدارة بنى أمية منذ عهد عمر بن الخطاب، فمعاوية وعمرو من بنى أمية وعندما عزل عثمان رضى الله عنه عمرو و عين بدلا منه عبد الله بن سعد بن أبى السرح كان أيضا من بنى أمية وسبق أن استعان الخليفتين أبو بكر وعمر ببنى أمية فى غير موضع إدارى لكفاءتهم الإدارية) كما اتهموه بمنح أقاربه عطايا من أموال المسلمين (احتجوا على ذلك بحصول عبد الله بن سعد على خمس الخمس من غنائم إفريقية وحصول مروان بن الحكم على أموال مشابهة من الغنائم و هو ما رده عليهم عثمان بن عفان رضى الله عنه بالحجة والبرهان. وكيف أن الأموال فى عهده كانت تفيض على كل من فيها من رعايا الدولة).

وعلى الرغم من معرفته بأنهم على باطل إلا أنه أراد يطفئ نار الفتنة فطلب منهم اختيار من يرضونه من الولاة وعندما رضوا بالقرار وافترق الفريق

المصرى عن الفريق العراقى أخذوا الخطوة التالية بتدبير تزوير رسالة إلى مصر تزعم نقضه للعهد الصادر منه إليهم و مطالبته لوالى مصر بالقبض عليهم و قتلهم (الرسالة كانت موجهة لمصر و جموع المتآمرين من كلا الفريقين العراقى و المصرى عادت فى وقت واحد إلى المدينة. و يورد المؤرخون هنا كيف حاور سيدنا على بن أبى طالب عن كيفية معرفة الفريق العراقى بأمر الرسالة و هم على طريق بعيد مخالف لطريق مصر و لما أعجزهم فى الرد قال سيدنا على ذلك أمر دُبر بالمدينة و يعنى بذلك تدبيرهم الأمر أثناء وجودهم بالمدينة و هو ما يُظهر النية فى إثارة الفوضى بأى طريقة).

و لقد ظل هؤلاء الرعاع محاصرين لأمير المؤمنين فى داره و أشاعوا الفوضى فى المدينة و استحلوا حرمها مطالبينه إما بقتل مروان بن الحكم الذى اتهموه بالرسالة و إما خلع نفسه و لما رفض هددوه هو نفسه بالقتل و وصل بهم الأمر أن منعوا الماء عنه و اعتدوا على أم المؤمنين أم حبيبة لما حاولت أن تُدخل له الماء (زوجة رسول الله يُعتدى عليها من قبل جماعة من الغوغاء).

و نسأل هنا هل كان الصحابة فى المدينة و أهل المدينة عاجزين عن قتال هؤلاء الأوباش و منعهم من فعلهم القبيح هذا خاصة بعد أن قامت عليهم الحجج و البراهين الدالة على نواياهم السيئة؟

الجواب هنا أن بالتأكيد أن أهل المدينة الّذين كانوا أكثر عددا بأضعاف مضاعفة من هذه العصابة كانوا بإمكانهم سحقهم إذا لزم الأمر، ولكن الصحابة الّذين التزموا بالطاعة و التأدب مع ولى الأمر منذ عهد النبى لم يستطيعوا مخالفة أمر أمير المؤمنين الذى أمر بعدم قتالهم حتى لا تُراق دماء المسلمين فى مدينة رسول الله (فهو متمسك أيضا بأن هذه هى البلوى التى أخبره بها رسول الله قبل لحاقه به إلى الجنة فهو بتصديقه لرسول الله عالم أنه مقتول لا محالة فلماذا يتكبد عناء إراقة دماء المزيد من المسلمين).

كما أنه قد يكون حسب أيضا أن هؤلاء الجمع ينتمون لقبائل و هى و إن كانت لا تقف معهم إلا أن قتلهم فى غير بينة و على مسافة من ديارهم قد يثير قبائلهم للأخذ بالثأر فتُصبح حربا أهلية بين جموع المسلمين و هو ما لا يريده (كان هذا أيضا هو رأى على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد توليه الخلافة).

ولعل هذا قد يكون خطأ عظيما فى الاجتهاد إذ أنه بذلك جعلهم يستبيحون المدينة ويُشددون عليه الحصار ولم يكن معه إلا فئة قليلة ممن أصروا على الدفاع عنه (كان منهم الحسن و الحسين أبناء سيدنا على لمن يتشدق أن على كان كارها لعثمان، وكان منهم عبد الله بن الزبير و مروان بن الحكم وعدد من موالى سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه.(

وفى عام 656م وبعد فترة من تشديد الحصار عليه ومع تنامى المسامع إلى الغوغاء بإرسال معاوية قوة عسكرية من الشام لنجدة الخليفة قرروا الإسراع فى مخططهم واقتحموا داره وقتلوه وهو يقرأ فى كتاب الله عند آية (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) .

وباستشهاد عثمان بن عفان ضرب دعاة الفوضى ضربتهم الثانية بأن قتلوا خليفة المسلمين على أيدى أناس ادعوا أنهم مسلمون، فلوثوا نقاء و أخوة الإسلام وأشعلوا نار الثأر فى الصدور، ومع تأجيج الغضب دخلت العقيدة فى أصعب امتحان لها منذ وفاة الرسول الكريم.

ولعلنا هنا نريد أن نؤكد على أن سياسة التسامح لم يكن خطأ من عثمان رضى الله عنه إلا أن التخلى عن الحيطة والحذر وإفلات الزمام على نحو مطلق لأقوام ليس لهم قوة إيمان الصحابة ولديهم كل الاستعداد للتنازل عن العقيدة فى سبيل الحصول على حصة من الثروات المتدفقة على دولة الإسلام كان خطأً فادحًا.

ولقد كان عمر بحق هو الباب الذى كان يصد أمثال هؤلاء عن الافتتان و السقوط فلما كُسر الباب انسلوا وانسابوا لها وراء الأطماع والموارد.

وصدق عثمان رضى الله عنه حين قال عن عمر (ومن يطيق ما يطيق عمر).

ولقد صدق رسول الله حين قال (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنّي أخشى أَنْ تُبْسَط عليكم الدُّنيا كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فتَنَافَسُوها كما تَنَافَسُوها، وتهلككم كما أهلكتهم).

فقد كان هذا التنافس الذى ظهر فى أواخر عهد عثمان رضى الله عنه هو بداية جر الدولة إلى الهلكة .

بسم الله الرحمن الرحيم (واتقوا فتنة لا تصيبن الّذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب) صدق الله العظيم (الأنفال، 25).

الضربة الثالثة (لنصب الزيت على النار) (الفتنة الكبرى 656-661م)

بعد مقتل سيدنا عثمان الشهيد المظلوم رضى الله عنه أحكم الغوغاء قبضتهم على المدينة لمدة خمسة أيام حاولوا فيها أن يعرضوا منصب الخلافة على عدد من الصحابة منهم على بن أبى طالب و الزبير بن العوام و عبد الله بن عمر بن الخطاب و آخرون، إلا أنهم جميعًا رفضوها؛ لأنهم كانوا يعلمون أن من سيقبلها سيكون عليه تبعة الثأر لدم الشهيد المظلوم و إخماد الاضطرابات التى أقامها هؤلاء الرعاع فى بلادهم قبل زحفهم على المدينة.

ولأن المسلمون فى المدينة كانوا بحاجة إلى قائد جديد على وجه السرعة فقد ارتأوا أن أصلح رجل لها هو الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ابن

عـم رسـول الله وزوج ابنتـه وأحـد أقـدم المستشـارين فى دولتـه مـع الثلاثـة الّذين سبقوه.

ولهذا ضغط المسلمون من أهل المدينة على عليّ كرم الله وجهه ليقبل بهذا العبء الثقيل ووجد الغوغائيون من قتلة عثمان رضى الله عنه الفرصة سانحة حتى يستطيعوا المبايعة مع الجميع ثم يعودوا فيختفوا فى بلادهم و تموت جريمتهم معهم.

قبل سيدنا علي بن أبى طالب رضى الله عنه الأمركارها، وأقبل الناس على بيعته فى المدينة وأرسل إلى الأمصارليأخذوا له البيعة حتى يتمكن من مباشرة أعماله.

وفى الشام وصل لمعاوية بن أبى سفيان الخبروجاءته رسالة من نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان بن عفان رضى الله عنه والتى شهدت مقتل زوجها أمام عينيها وقطع الغوغاء ثلاث من أصابعها وهى تحاول الدفاع عنه، فأرسلت مكلومة إلى معاوية بن أبى سفيان تجعل له ولاية دم عثمان على اعتبارقرابتهم وتصور له قتلته البشعة وتطالبه بالثأر.

كان من الطبيعى هنا أن يرفض معاوية وهو الغاضب على مقتل عثمان أن يبايع عليًا كرم الله وجهه حتى يتبين له خطوة على تجاه قتلة عثمان رضى الله عنه.

obeikandi.com

ولى على بن أبى طالب رضى الله عنه الدولة وهى على هذه الحالة الصعبة من الانقسام والغليان وعوامل الفوضى جاهزة للانتشار فى أى وقت.

أراد على رضى الله عنه أن يعطى الأمر فرصة للهدوء حتى يتمكن من تطبيق معيار الحكم على القتلة فيقتص ممن ثبت فى حقه قتل عثمان رضى الله عنه فلا يقتل أحدا بمظنة أو شك (وهو فى هذا كان على الصواب من الناحية الشرعية)، وخطب فى الناس أكثر من مرة ينبههم إلى وجود قتلة عثمان بين أظهرهم وأنه لابد من واجد وسيلة فى القصاص منهم من غير تحول الأمر إلى حرب أهلية.

ولقد كان الغوغائيون قد استمالوا إليهم جموعًا من الأعراب وعوام الصحراء ليتقووا بهم على أهل المدينة فيصبح إخراجهم بالقتال عملًا كارثيًا.

وعندما اشتد الاختلاف بين أمير المؤمنين عليا وبين طلحة والزبير رضى الله عنهما فى أمر القتلة فقد استأذنوه للخروج إلى مكة للعمرة.

وفى مكة اجتمع الصحابيان مع أم المؤمنين عائشة، وقرروا المسير إلى البصرة وكان المسير له هدفًا واحدًا، وهو تجفيف منابع قوة القتلة التى يخشى منها علي رضى الله عنه بسحب أى رأى عام موالى لهم فى العراق فتنقطع عنهم الميرة والمدد ويسهل اجتثاثهم من مدينة رسول الله.

إلا أن عليا رضى الله عنه تصور أنهم خرجوا إلى البصرة خروجا عليه، و طلبا لتنفيذ حكم القتل بأيديهم، وكان هذا مما ينتقص منه كأمير للمؤمنين فقرر الخروج لملاقاتهم واستنفر لذلك جيشا من الكوفة (بالتأكيد ساهم فى إخراج علي من المدينة وتأجيج هواجسه خوف هؤلاء الغوغاء من انقطاع إمدادهم من بلادهم وانصراف الناس عنهم هناك لحساب أم المؤمنين وصاحبيها فسارعوا للخروج لاعتراضهم ومنعهم من وضع الأمور فى نصابها الصحيح).

ولقد كان الحسن بن على سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم معارضا لخروج أبيه إلى البصرة، وكان يرى أن يخلّى بين القوم وبين الغوغاء ويظل فى المدينة حتى يتبن له معالم الأمر ولكنه كان قضاء الله النافذ وكان الخطأ الأول من أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه.

وفى البصرة التقى الفريقان بعد نجاح فريق الزبير وطلحة فى قتال عدد من قتلة عثمان والاقتصاص منهم (وهو ما كان نذير خطر على الباقين) وفى البصرة تكلم علي مع طلحة والزبير رضى الله عنهم جميعا وذكرهم بأحاديث رسول الله وبدا أن الفريقين على طريق الوفاق خاصة مع تطوع الصحابى القعقاع بن عمرو التميمى لإصلاح الموقف بين الفريقين وتقريب وجهة النظر وإزالة الخلاف وبات الفريقان ليلتهما وهما متفقان على وجهة النظر.

ولأن المتآمرين من ضعاف النفوس مع العرب ومن والوهم من أتباع اليهودى عبد الله بن سبأ قد استقرت نيتهم على إفساد الصلح فقد عمدوا إلى إنشاب القتال ليلا بين الفريقين حتى يتخيل كل فريق أن الفريق الآخر قد غدر به فكانت وقعة الجمل.

وكما تلوثت أيديهم بدماء عثمان بن عفان رضى الله عنه تتبعت جماعة منهم الزبير وطلحة رضى الله عنهما، وقتلوهما وانتهت الموقعة عن احتدام الخلاف، وتزايد هوة الشقاق بين الفريقين بعد توغل الدم وتفرقه بين الأيادى.

وكان على إثرها أن اضطر أمير المؤمنين للإقامة فى الكوفة ونقل إليها عاصمة الملك حتى يكون قريبا من الشام التى يتمركز بها معاوية وبنى أمية.

(تأمل هنا عزيزى القارئ كيف يُمكن أن يستغل دعاة الفوضى أى موقف حتى لو كان بنية صالحة لاقتناص الخطأ، وإكمال مثلث الفوضى وإشعال الفرقة بين إخوة الإسلام وصدق من قال أن أفظع الأعمال ارتُكبت باسم أصلح النوايا).

ومن المعروف بعد ذلك كيف وقعت المعارك بين على ومعاوية فى صفين و التى انتصر على فيها فى بادئ الأمر حتى إذا أحس معاوية الهزيمة رفعوا

المصاحف فوق أسنة الرماح وطالبوا بتحكيم كتاب الله بين الفريقين حقنا لدماء المسلمين.

وفى خضم هذه المعارك وحالة الفوضى بين إخوة الإسلام أصبح الطريق مهيئًا أمام اليهودى عبد الله بن سبأ لنشر أفكاره المنحرفة عن العقيدة بين أوساط أهل العراق (تطبيق مشروع بولس الرسول الذى تم وضعه لتحريف دعوة عيسى عليه السلام) فنشر القول بعقيدة الرجعة وأن عليا إنما هو الأحق بالخلافة منذ بداية الأمر، وأنه الوصى على الدين ثم غلا بأكثر القول فقال بحلول روح الله فى الأنبياء وأنها انتقلت من نبى الله محمد إلى على فأصبح علي فى نظره هو الله وأنه نبى يبشر به.

وقد ورد فى غير موضع من كتب التاريخ السنية والشيعية أن عليا علم بقول هؤلاء فجمعهم واستتابهم عن هذه الردة عن العقيدة فأبوا فأمر بقتلهم ورئيسهم عبد الله بن سبأ، (وتورد أقوال أخرى أن أناس من أهل العراق احتجوا على علىّ رضى الله عنه بدعوى أن هذا الرجل إنما يدعو لحب أهل البيت فنفاه إلى المدينة، وكان هذا الرجل اليهودى هو النواة الذى تأسست على آراءه مذاهب غلاة الشيعة).

ثم كان ما كان من أمر التحكيم والذى أدى إلى خروج فريق من جند على رضى الله عنه على أمير المؤمنين، ووصل بهم الأمر أن كفروه ومعاوية وكل من شارك فى التحكيم بدعوى مخالفاتهم الصريحة لكتاب الله وأصول

الدين، (أصحاب رسول الله كفار و يالسخرية القدر و من يدعون تعليمهم أصول الدين هم أقوام ممن شاركوا فى فتنة قتل عثمان رضى الله عنه).

فكانت هذه ثانى فرقة تخرج عن العقيدة و معها بدأت أصول تيارات التكفير و قد حاربهم أمير المؤمنين علي رضى الله عنه و انتصر عليهم فى النهروان بعدما أن قام عليهم الحجج و مع ذلك رفضوا الرجوع إلى حظيرة الجماعة.

و مع حلول عام 661م و فى أثناء فترة الهدنة بين على و معاوية دبرت مجموعة من الخوارج مؤامرة ثلاثية لاغتيال من أسموهم رؤوس الكفر و هم (على بن أبى طالب، معاوية بن أبى سفيان و عمرو بن العاص)، حتى يتركوا للمسلمين حرية اختيار الحاكم بعد ذلك (هم لم يريدوا بذلك إلا إيقاع الدولة فى شرك حرب لا نهاية لها فإذا كان الخلاف قد وقع و زاد بين جماعة من أهل الحل و العقد و أصحاب العقول ممن عُرفوا بالإيمان و حسن السيرة، فكيف بعموم المسلمين و هم لم يُشربوا الإسلام فى قلوبهم و كانت سيوفهم تتقلب مع كل محارب بحسب المصلحة و النفع و الدسائس من كل ناحية؟).

و فى أواخر شهر رمضان نجح عبد الرحمن بن ملجم فى تنفيذ المخطط الدنيء بقتل أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه بينما فشل صاحبيه فى مخططهما.

اجتمع أهل العراق على الحسن بن عليّ رضى الله عنهما لمبايعته على الخلافة، ولكن الرجل الحصيف ذو العقل الراجح الذى علم اختلاف قلوب هؤلاء القوم وتقلبهم على حكامهم قرر أن ينأى بنفسه عن الخوض فى هذه الفتنة وأن يحقن دماء المسلمين، وقرر معها أن يسلم معاوية بن أبى سفيان مقاليد الحكم كاملة فى بلاد المسلمين ليصبح عام 661م/40هـ يعرف بعام الجماعة وصدق فيه قول الرسول (إن ولدى هذا سيد وعسى الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.(

ولكن الفتنة التى امتدت لخمس سنوات كانت صدمة مروعة لدولة الإسلام، وأحدثت فيها شرخا عمد دعاة الفوضى على تأجيجه ناره و إشعال وقوده على مدار قرون من الزمان حتى إسقاطه ومن أهم نتائج هذه الفتنة ما يلى:

-انتقلت حاضرة الخلافة من المدينة مركز الإشعاع العقائدى فى عصر الرسول والخلافة الراشدة إلى الشام التى كانت حصن بنى أمية ومعقلهم طوال أحداث الفتنة، وعملوا بها على توطيد دعائم ملكهم فيها بشكل لا تنازعها فيه أى مدن الخلافة.

-بُذرت بذرة العداوة بين صفوف المسلمين وأقاليمه (خاصة بين الشام و العراق) وترسخ مع أحداث عظام كان أشهرها مقتل الحسين رضى الله عنه فى موقعة كربلاء كما سيأتى ذكره.

-أوقع دعاة الفوضى جموع المسلمين فى إشكالية نعانى منها إلى يومنا الحالى فى مدى الإثم اللاحق بمن شارك فى أحداث الفتنة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما فتح الباب لأقاويل وتفسيرات خرجت بها مذاهب شطت أيما شطط فى صحيح الدين من معتزلة وشيعة وروافض، بل وانقسام أناس من أهل السنة والجماعة نفسهم لعلماء يمالئون السلاطين ويمنحونهم الأعذار الشرعية فى أى انتهاكات يقومون بها باسم الدين، وعلماء آخرون يصدعون بالحق ويسعون أن يردوا الناس لأصول الدين التى غابت عنهم مع هذه الفتنة المظلمة ويُلاقون فى سبيل ذلك أنواعا مختلفة من العذابات والوشايات والمكائد.

-أما أهم ما ترتب عن هذه الفوضى الكبرى أن تحولت دولة الإسلام من الخلافة على نهج النبوة من زهد وتقوى وشورى (وهى أهم ما فى الأمر) إلى ملك عضودًا وبلاطًا ملكيًا وحاشية وسعيًا للثروات والموارد والسلطان بالتوازى مع وجود العقيدة فى النفوس تزيد مرة وتنقص مرات، وكان هذا عين ما سعى له دعاة الفوضى الّذين نجحوا فى جر دولة الإسلام من سموها المرتفع كيوتوبيا على الأرض إلى مملكة أخرى تضاف إلى ممالك الأرض (وإن كانت اتسمت بالتزامها فى كثير من الأحيان بمعايير الأخلاق و العقيدة تبعا لمن ولى أمر وشئون الدولة).

وسنرى لاحقا كيف تعاملت الدولة الجديدة مع هذه المتغيرات على الأرض.

وصدق رسول الله حين قال (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال، 46).

****

العالم منذ عام 662-847م

نجح دعاة الفوضى فى إنزال دولة الإسلام من علوها وسموها الأخلاقى و جرها إلى أن تكون إمبراطورية جديدة تُضاف إلى إمبراطوريات وقوى العالم المتصارعة، فكان من الطبيعى بعد ذلك أن تبحث الدولة عن تأمين مجالها الحيوى من كل مظاهر الاعتداء وتوفير الموراد والثروات اللازمة للحفاظ على كيانها الملكى الجديد قويًا فى مواجهة القوى الموجودة على الساحة.

وقد خطت الدولة التى عُرفت اصطلاحا فى التاريخ الوسيط بدولة الخلافة (مع العلم أنها لم تقم باتباع النهج النبوى بشكل كامل فى الاستخلاف بما يؤهلها لحمل شرف الاسم) بخطوات واسعة لم يصل إليها أحد من فاتحى العالم السابقين ولا حتى الإسكندر الأكبر إذ أنها وصلت بحدودها إلى ابتلاع إمبراطورية الفرس كاملة وجزءًا كبيرًا من الإمبراطورية الرومانية، وزادت عليه عبورها حتى وصلت إلى مشارف الصين وجنوب روسيا وأصبحت أشبه بعملاق ذو كفتين واسعتين يحيط بالعالم القديم من ناحيتيه. وعلى هذا الوضع كان من المفترض أن تصبح دولة الخلافة سيدة العالم القديم بلا منازع.

ولكن المتأمل فى مراحل صعود النظام الإمبراطورى الإسلامى يجد أن الدولة كانت تقع فى معضلة نفسية داخلية فى التعامل مع رعاياها، و خارجية فى التعامل مع أعدائها منذ بداية فتنة مقتل سيدنا عثمان رضى الله عنه ولم تلبث هذه المعضلة أن زادت تعقيدا مع الدولة الأموية و اتسعت لتصبح هوة سحيقة فى عصر الدولة العباسية، ولم تلبث أن تحولت هذه الهوة إلى فوالق قسمت الدولة مع أول بادرة ضعف فى الملك إلى أقاليم متنازعة استغل فيها كل طامع عناصر قوته لهدم وتشويه النظام الإسلامى النبوى الأصيل وتحويله إلى مسخ مشوه يجب القضاء عليه.

وسيتضح لنا فى السرد المقبل للأحداث كيف تضافرت عوامل الفوضى الداخلية مع القوى الخارجية فى تقطيع أوصال المنهج السليم لتدمير أى قوة عقائدية لليوتوبيا الإسلامية ومنعها من اتباع المنهج النبوى بشتى الطرق.

القوى الموجودة على الساحة:

-الدولة البيزنطية: والتى انكمشت حدودها بشكل كبير مع الفتوحات الإسلامية بعد أن خسرت الشام ومصر والعديد من المستعمرات فى الشمال الإفريقى فلم يبقَ لها إلا منطقة هضبة الأناضول وآسيا الصغرى والقسطنطينية وما جاورها وعدد من المقاطعات المتناثرة فى بلغاريا و رومانيا والجنوب الروسى (وذلك بعد أن عقدوا سلسلة من التبشيرات المسيحية والفتوحات فى شمال شرق أوروبا).

-الدولة الأموية (662-750م): والتى تسلمت مقاليد الخلافة منذ عام الجماعة (661م) وجعلت عاصمة الخلافة فى دمشق، ومنها كانت قاعدة العمليات التوسعية ضد جيوب الفرس المتبقية وضد حدود الهند و الصين (والأخيرة كانت على علاقة لابأس بها مع فارس) كذا التوسع فى الغرب حتى وصلت إلى فتح شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال أوما يُعرف بالأندلس) ثم ورثتها العباسية حتى عام 1258م.

-مملكة الخزر: تكونت فى القرن السابع الميلادى و ظلت قائمة حتى القرن العاشر الميلادى، و امتدت حدودها من بحر قزوين حتى جبال الأورال و قد لعبت دورًا مهمًا فى منع المد الإسلامى من النفاذ إلى قلب القارة الأوروبية و كان اعتبار الديانة اليهودية الديانة الرسمية للدولة عاملًا مهمًا فى تغيير التركيبة العرقية لليهود من العرق السامى للعرق الآرى فى أواخر العصور الوسطى و العصر الحديث.

-إمبراطورية الصين: فى أقصى شرق آسيا كانت سلالة تونغ تحكم الصين منذ عام 618م وكان غالبيتهم على الوثنية (يعبدون رموز الطبيعة و يقدسون الأباطرة كعادة شعوب العالم القديم، وزادوا على ذلك عبادة الفلاسفة كأمثال كونفوشيوس)، و قد كانت علاقتهم ببلاد فارس علاقة ود وتجارة و ما إلى ذلك ويتضح ذلك من رسالة يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس عندما استقر بمرو فى أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه فأرسل إلى إمبراطور الصين يطلب النصرة إلا أن الأخير لم يشأ الدخول فى مغامرة حربية مع أقوام ليس له بهم علم مما قد تتعرض معه الصين للخطر، و قد كانت أبعد ما وصل له المسلمون شرقا فى توسعاتهم.

-ممالك الهند: و التى كانت ممالك إقليمية انتشرت فى شبه القارة الهندية مع انهيار إمبراطورية الغوبتا عام 470م، و تمايزت فى أقاليم الراجبوت و البنجاب و البنغال و الهند الصينية.

-أوروبا الغربية: والتى كانت فى بدايات تلك الفترة استمرارًا لمرحلة الانحدار التى نتجت عن انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية عام 476م وصراع القبائل الجرمانية والإفرنجية والأنجلوساكسونية، والتى نتج عن هذه الصراعات تكون تحالف بين مجموعة من قبائل الفرنجة مع الكرسى الرسولى فى الفاتيكان الرومانى لإعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية، فظهرت على التوالى الدولة الميروفينجية والدولة الكارولينجية والتى ساهمت فى صد المد الإسلامى من ناحية الأندلس.

ولقد كانت الدولة الإسلامية فى موضع القلب من الأحداث وكانت أذرعها الممتدة عالميًا سببًا مهمًا فى تطور أساليب ومشاريع الفوضى لمواجهة تمددها.

لنتابع..

oubeikandl.com

الدولة الأموية (661-750م)

عام الجماعة و فترة قصيرة من السلام:

ذكرنا سابقا كيف تسلم معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه مقاليد الخلافة بعد تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما عنها حقنا لدماء المسلمين، و تأليفا للكلمة خاصة بعد ما رأى من تفرق كلمة أتباع أبيه و نزوعهم المستمر للخلاف و الثورة حتى فى حياة أبيه ما كان له أبلغ الأثر فى اضطراب صفوفهم المستمر.

و مع انتهاء الفتنة و استتباب الأمر لمعاوية تطلع المسلمون إلى الاستمرار فى نشر دعوة نبيهم السامية و العودة إلى نظام النهج النبوى خاصة و أن الدولة الإسلامية ما زالت تحت التهديد المستمر من العدو البيزنطى و لكن هيهات أن يعود ما فات.

فالبيت الأموى لم يكن بأى حال مشابها لعهد الخلافة الراشدة فى أيام الصديق أو الفاروق أو حتى ذو النورين، فالأمويين معروف عنهم منذ البداية أنهم رجال مال و إدارة و قد أسلم غالبيتهم فى وقت متأخر من الدعوة قبيل فتح مكة بعام أو عامين و منهم من أسلم مع الفتح أو بعده بعد أن تأكد لهم استحالة الانتصار على الدعوة النبوية.

obeikandi.com

وليس العرض هنا تعريضا بدينهم حاشالله فقد كانت لهم خدمات جليلة قدموها للإسلام منذ إسلامهم، وكان منهم قادة عسكريين وولاة وإداريين استعان بهم الرسول وخلفاؤه من بعده لعلمهم بكفائتهم وقدرتهم على خدمة الدولة.

ولكن لم ينل من أصحاب البيت الأموى القدر الكافى من التربية النبوية التى نالها السابقين من المهاجرين والأنصار (اللهم إلا سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه) فكانوا مع إسلامهم وسعيهم فى إعلاء كلمة الدين طامعين فى الشرف والثروة التى يجلبها معه سلطان النصر للدولة الإسلامية، (فهم على ذلك على عهد قريش الجاهلى من حب السلطة و التفاخر بالملك والقوة)، ولربما كانت معرفة الصديق والفاروق بذلك سببًا فى تحجيمهم إلا قليلا حتى لا ينفلت عقالهم حتى تنتهى عملية تهذيب نفوسهم بشكل كامل (ولأن عملية إطلاقهم فى الأمصار فى عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه كانت قبل أوانها فقد كانوا أحد الأسباب التى استغلها دعاة الفوضى للثورة على الخليفة الشهيد).

وقد كان معاوية رضى الله عنه على علم تام بما يختلج فى نفوس القبائل المختلفة من ناحية بنى أمية والتى تراوحت بين النقمة عليهم، لانتزاعهم شرف الملك وبين الطمع فيهم من قبائل أخرى ساندتهم للوصول إلى الملك (ولعلنا هنا إحقاقا للحق نورد أن عوامل تداخل المسلمين الجدد من

الفرس أو أهل العراق القدامى أو أهل مصر فى الفتنة كانت محدودة من قبل العامة و إنما حركها فئات معينة كانت مضارة من اليويتوبيا الإسلامية و حركتها أطماع القبيلة و تلاقت مع أحقاد الفرس و اليهود).

ولقد سعى معاوية إلى تثبيت دفة الملك عن طريق اعتماده سياسة متوازنة إلى حد كبير لعب فيها على تهدئة الوضع و تسكينه فى العراق و الحجاز مع توطيد ملكه و تقويته بعرب الشام و موارد مصر الكبيرة، (كل ذلك عن طريق منح العطايا و الهبات و استمالة القبائل المختلفة بالمال و النفوذ، و هو ما كان بداية لإطلاق يد الملوك الأمويين و نبلاء الأرستقراطية الأموية فى أموال المسلمين بشكل فيه كثير من الإسراف و عدم العدل) لمواجهة أخطار أى فتنة كما عمل على تثبيت الأوضاع العسكرية مع الروم بين الشدة و اللين لحين تعافى الدولة من صدمة الفتنة.

وكان أول انحراف واضح عن النهج النبوى قد تجلى فى قضية ولاية أمر المسلمين من بعد معاوية و التى ارتأى فيها أن يجعلها وراثية لولده يزيد (خاصة بعد وفاة الحسن بن على رضى الله عنه) و التى كانت ربما عن اجتهاد جانبه الصواب منه؛ لأن صورة النزاع فى الفتنة كانت لاتزال ماثلة فى ذهنه.

ولقد أدى هذا النهج إلى ثورة الكثير من الصحابة فى المدينة عليه لمخالفته لقواعد الشورى المعمول بها فى عهد النبى وخلفائه من بعده؛ ولأنها فتح بها الباب لتأسيس ملك وراثى غير قائم على مبدأ الكفاءة والعدل.

ولقد حاول معاوية استمالة أكثر الصحابة وإقناعهم برأيه إلا أنه فشل مع اثنين منهم وهما سيدنا الحسين بن على وسيدنا عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما.

ومع وفاته كان الخلاف مازال قائما حول قضية الحكم وهو ما كان بمثابة الريح التى كشفت الجمر المختفى تحت الرماد السلم الهش.

الفتنة دائما تأتى من الشرق (عملية فتح الجرح القديم):

فلقد استغل دعاة الفوضى من القبائل فى أرض العراق (ومن كان معهم حاقدى الفرس) الّذين ساءهم علو شأن عرب الشام عليهم مع انحطاط شأن الفرس، فكاتبوا سيدنا الحسين بن على رضى الله عنه زاعمين نصرته على يزيد ومبايعته للخلافة، واستمروا على هذا الزعم حتى أرسل لهم ابن عمه مسلم بن عقيل للتثبت من صدق نيتهم حتى إذا جمعوا له عددا لا بأس به فى البيعة أرسل له مطالبا إياه بالخروج.

وكما حدث مع أبيه على بن أبى طالب من قبل فقد حذره كثير من الصحابة ومن عقلاء المدينة من الخروج لما رأوا فيه من تجديد للقتال بين

المسلمين ولكنه رحمه الله رأى فى ما حدث من معاوية ويزيد خروجًا على الصحيح يستلزم معه الخروج خاصة مع عزل الوالى النعمان بن بشير (و الذى كان صحابيًا جليلًا وكان يتسم بالرفق و اللين) وتولية عبيد الله بن زياد أمر العراق وقد كان غليظًا قاسى القلب (وأمه مجوسية) (هذا الأسلوب فى تعيين الولاة فى العراق و الحجاز سيصبح سمة مميزة فى البيت الأموى وهو من أهم المآخذ عليهم فالحاكم العادل المستقيم لا يولى أبدا واليًا ظالمًا جبارًا كهؤلاء).

وقد نجح عبيد الله بن زياد فى تفريق كلمة المبايعين للحسين رضى الله عنه(وهو إن دل على شيء فيدل على أن نيتهم من الأساس لم يكن نصر العقيدة والنهج النبوى و إنما محاولة لشق الصف وتحقيق أى مكاسب من وراء هذا الخروج حتى لو ذهب ضحيتها حفيد رسول الله وسيد شباب أهل الجنة).

وفى كربلاء دارت معركة غير متكافئة بين أهل الحسين وبين جيش عبيد الله بن زياد بعد تعمد الأخير إذلال الحسين فى شروط الصلح بإيعاز من قائد جيشه شمر بن ذى جوشن وهو من الخوارج الّذين خرجوا على علي بن أبى طالب رضى الله عنه فى النهروان (تأمل معى عزيزى القارئ مجوسى الأم متحالف مع خارجى موتور و مستترين بعباءة الإسلام هم خير دليل على سوء اختيار خلفاء بنى أمية للولاة وبداية ظلمهم). ولقد نتج عن هذه

المعركة مقتل كل أبناء الحسين (حتى طفله الرضيع البالغ من العمر ستة أشهر) ماعدا واحد و مقتل الحسين نفسه على يد الخارجى الموتور شمر بن ذى جوشن.

كان من الطبيعى أن تُحدث هذه المعركة صدمة جديدة بين المسلمين و ثورة عارمة بين أهل المدينة المنورة و الحجاز على هذا الخليفة الذى لم يُحسن اختياره ولاته و قادته و حملوه مسئولية جريمة قتل الحسين.

ولكن بدلا من معالجة الأمر بشكل حليم مع أناس هم من عقلاء المدينة تم الدفع بقائد غليظ آخر هو مسلم بن عقبة فكانت وقعة الحرة التى عاث فيها فسادًا حتى أن علماء المسلمين اللاحقين أسموه مسرف بن عقبة من فرط ظلمه فيها.

من هذه المرحلة بدأ دعاة الفوضى ممن اندسوا بين أقطار المسلمين الواسعة على العمل على فتح هذا الجرح كلما هدأ، و فطنوا إلى أن أفضل الحلول لشطر هذه الإمبراطورية و تدميرها هى العمل على إذكاء نار العداوة بين من ادعوا نصرة آل البيت و حبهم مما لحق بهم من غبن و بين ممن تبعوا بنى أمية و والوهم.

أصبح الصراع الداخلى هو صراع نخب، بنو أمية و من والاهم من القبائل اليمنية و أهل الشام الّذين كانوا عماد الدولة و قاتلوا لبقائها تحت أى

ظرف ونخبة أهل العراق من عرب وفرس وديلم الّذين وجدوا فى آل بيت رسول الله كبش المحرقة المثالى، وأفضل وقود لإشعال النار التى ستأكل البيت الأموى.

وساعد على ذلك من ترسخ الشعور العدائى لدى بنى أمية لكل ما هو قادم من بلاد الفرس القديمة فقد حملوهم مسئولية قتل عثمان ومسئولية جرعلىّ لقتال معاوية ثم مسئولية إخراج الحسين لقتال والى يزيد، فقرروا على إثر ذلك أن يلقوا على العراق وبلاد فارس بأظلم الولاة وأكثره جبروتًا، وأخذهم عامة ونخب بكل مظنة تفضى إلى قتلهم واستئصالهم ما أدى إلى تفاقم الشعور بالظلم لدى عامة مسلمى العراق ممن لم يكن لهم ذنب ولا ناقة أو جمل فى هذا الصراع وخلق فى العراق أخصب بيئة لإطلاق الفوضى فى قلب الدولة الإسلامية فكانت الفتنة دائما تأتى من الشرق.

الفتوحات الخارجية والعلاقة بغير المسلمين:

على عكس التعامل الداخلى فى الدولة نجد أن الأمويين كانوا حملة مشعل الجهاد فى الدولة الإسلامية وكانت جيوشهم هى النقطة التى ظهر فيها جليا تمسكهم بتعاليم الإسلام فقد كانت جيوشهم ملتزمة التزام كامل بأخلاقيات الحرب وقانون العهد النبوى والتعامل مع أسرى الحروب و إظهار الوجه المنير للدعوة الإسلامية فى كل البلاد التى دخلوها، فلم يُعرف

عنهم ميلهم لإقامة مذابح أو تدمير مدن، بل كانوا يسعون لاكتساب كل بلد مفتوحة إلى صفهم ما يعمل على زيادة قوتهم.

ولعل أروع مثال لذلك تجلى فى فتوحاتهم للأندلس والتى كان عماد جيشهم فيها من البربر المسلمين بل كان قائدهم من هؤلاء البربر وهو طارق بن زياد (ولقد كانت الأندلس أكثر البقاع الأوروبية المهيأة للفتح الإسلامى، فطبيعة أهلها كما ذكرنا منذ القدم كانت خليط من الآريين والبربر والساميين، كما أن الأندلس كانت تتبع الأريسية التوحيدية كعقيدة للنصارى منذ عام 476م وكانت فى صدام دائم مع الكنيسة الكاثوليكية والوثنيين ومن والاهم من ملوك القوط حتى بدايات الفتح الإسلامى) ومع دخول المسلمين الأندلس كانت بداية الصدام مع أوروبا الغربية.

وكما كانت روح الإسلام ترفرف على الجيوش فى الأندلس كانت نفس الروح ترفرف على الجيوش الفاتحة لأقاليم من الهند وبلاد الصين ما ساهم على نشر تعاليم الإسلام بشكل سريع بين أهل هذه المناطق (وهو ما تم تعزيزه بالطرق التجارية خاصة طريق الحرير الذى امتد من الصين إلى بلاد الشام).

كما أن تعامل الأمويين مع أصحاب الديانات الأخرى داخل الدولة فى المجمل تعاملًا متسامحًا تظهر فيه روح الإسلام طالما هم لم يساعدوا عليهم

عدوًا ولم يخلوا بالعهود التى بينهم فكان لهم مطلق الحرية فى تنظيم شئون حياتهم.

وهنا تتجلى حجم المعضلة النفسية بين تعامل سمح يراعى الله وحدوده و أخلاق الإسلام مع الأعداء وذوى الديانات الأخرى (حتى أن بعض الروم و اليهود كانوا يتبوأوا مراكز مهمة فى الدولة خاصة فيما يتعلق ببيت المال) و بين تعامل ظالم قائم على الشك والريبة والقتل على الظن وليس اليقين (كما كان يحدث فى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى).

ولقد حاول بعض خلفاء بنى أمية الرد إلى النهج النبوى من أمثلة ذلك معاوية الثانى الذى حاول ترك الأمر للشورى بين المسلمين وسليمان بن عبد الملك الذى حاول التخفيف من ظلم السياسة المالية عند مسرفى بنى أمية.

وتجلت أعظم محاولة للرد للمنهج النبوى عند عمر بن عبد العزيز الذى سعى للقيام بتغيير جذرى فى السياسات المالية، واختيار الولاة وإقامة العدل بين عموم المسلمين من عرب وفرس وبربر مع إقامة البرهان و الحجة على الفرق المختلفة من المسلمين، ومحاولة رأب الصدع بينهم على مدار عامين وكانت محاولاته تحقق نجاحًا وتثبت به أن دولة الخلافة النبوية أصلح من الملك العضوض إلا أن النخبة من البيت الأموى سعوا فى قتله لخروجه على سياساتهم المنفصمة.

وكانت محاولات عمر بن عبد العزيز هى آخر مسعى لإصلاح النظام الإسلامى ورده إلى مرحلة اليوتوبيا مرة أخرى، ومن بعده انطلقت عوامل الفوضى المفتعلة تضرب فى شرق البلاد بأعنف مما سبق مع نشاط العباسيين الّذين تحالفوا مع الفرس وبدأوا بالدعوة سرًا مع

استخدام أبناء عمومتهم من العلويين من علماء أهل البيت كدرع واقى ينفس فيه الأمويين غضبتهم.

انهيار النظام الأموى:

ومع حلول العقد الخامس من القرن السابع الميلادى كانت الفوضى المفتعلة والثورات المستمرة من أرض العراق قد بدأت تؤتى ثمارها خاصة مع وجود خلفاء ضعفاء غير قادرين على تحمل تبعات الحكم ومع تصدع البيت الأموى نفسه من الداخل ومحاولات كل منهم إلى الإستئثار بالحكم لنفسه فتحولت الفوضى إلى فوضى تسلسلية فى كافة أرجاء الإمبراطورية الأموية الممتدة من الصين إلى الأندلس، نجحت معها جيوش العباسيين و التى كان عمادها فى هذه المرة الفرس وليس العرب فى اقتلاع الدولة الأموية من جذورها فى العراق ثم الشام والحجاز حتى نجحوا فى القضاء على آخر ملوكها مروان بن محمد فى مصر عام 750م ومعه نشأت الدولة العباسية.

كانت محصلة الدولة الأموية فى التاريخ إمبراطورية مترامية الأطراف خارجيًا، امتدت لمساحة جاوزت إمبراطورية الإسكندر والرومان

obeikandl.com

مجتمعين، و أصبحت معها دولة الخلافة كعملاق يحيط العالم القديم بكفيه.

و لكن حركة التوسعات الأموية العسكرية تحولت من محاولة لنشر الدين بشكل ثابت مستقر إلى مغامرات عسكرية غير محسوبة، خاصة مع محاولة بعض القادة الأمويين التوغل فى الغرب الأوروبى الهمجى من ناحية فرنسا بشكل غير مدروس مع تركهم لجيوب قوطية داخل الأندلس نفسها، كان أولى بهم القضاء عليها و تثبيت أقدامهم فيها قبل التفكير فى صدام مع برابرة الشمال و هو ما كان سببا فى انكفاء المسلمين للخلف و تثبت حركة فتوحاتهم عند الأندلس و إعلان حالة العداء بين المسلمين و بين الغرب المسيحى.

تمخض كذلك عن مرحلة الدولة الأموية بداية انقسام المسلمين الواضح بين فرق و مذاهب نتجت عن الصدمات و الفتن التى تعرض لها المسلمون فى الخلاف بين العراق و الشام فمن أهل جماعة واحدة حتى نهاية عهد عثمان بن عفان إلى شيعة غير متمايزة المذهب تنضوى تحت السنة و الجماعة و إن كانت تخالفها فى القائد إلى شيعة مغالية عمادها مذهب السبئية اليهودى و خوارج تكفر عموم الأمة و أهل جماعة منهم من يصدع بالحق و منهم من يمالئ السلطان (فى النزاع بين على و معاوية) إلى أهل سنة و خوارج و معتزلة و شيعة علوية(التى اتحدت مع السبئية لتخرج مذهب

الإمامية الإثنى عشرية فى عهد العباسيين) وشيعة كيسانية (هم أنصار المختار الثقفى صاحب شعار يالثأرات الحسين الذى ترفعه طوائف الشيعة المختلفة فى مهرجاناتهم المبتدعة) وانضم إليهم الرافضة الّذين أظهروا ذم الشيخين الصديق والفاروق واعتبروهما المسؤول الأول عن حالة الفرقة باستيلائهم على الحكم (مع أن المسلمين لو ساروا على نهجهم لما وصلوا لتلك الحالة من الأساس) ثم الزيدية الّذين انفلتوا من المسلمين بعد خيانة أهل العراق للمرة الثالثة لأهل البيت وغدرهم بالإمام زيد بن على.

الملاحظ هنا أن فى كل مرحلة من مراحل الثورات الداخلية فى عهد الدولة الأموية كانت الضحايا دائمًا يكونون من عقلاء المسلمين الّذين يدعون المسلمين لنبذ الخلاف والعودة للأصل فلم يسلموا من تكفير فرق الشيعة المختلفة ولا من ظلم خلفاء وولاة بنى أمية. فيخسر هؤلاء أرواحهم بينما يبقى الغلاة والمفرطون فى حلبة الصراع ليغرقوا معهم منهج الإسلام فى وحلهم أكثر فأكثر.

ودائمًا ما يبدأ الخلاف من قضية الحكم وهو أصل الخلاف ثم تفرع مع غلاة الشيعة والروافض للاختلاف فى العقيدة والعبادات والمعاملات رافضين بذلك التوحد مع السنة الّذين يخالفونهم فى منهج الحكم حتى لو كان الروافض على خطأ.

وقد لعبت النعرات الأموية فى تفضيلهم على العرب بعضهم على بعض وفى تفضيلهم العرب على العجم من المسلمين عاملًا قويًا فى إذكاء نار النعرات القومية و الشعوبية داخل أقطار العالم الإسلامى، و التى واجهها العجم و خاصة من الفرس و الديلم بالتشبث بكل قديم لهم فى ثقافتهم الفارسية القديمة حتى فى العقائد الوثنية و التى وجدوا فى غلاة الشيعة متنفسًا لبث عقائدهم هذه فى وسطهم لتختلط عقيدة الإسلام بالزرادشتية و المانوية و غيرها و تكتمل بذلك منظومة إفساد المشروع النبوى عند قسم غير قليل من المسلمين و هو ما سيظهر جليا فى العصر العباسى .

وكانت هذه النعرات القومية إحدى أهم الأسباب التى مهدت لتفكك دولة الأندلس نتيجة الصراعات بين العرب و البربر.

وواقع الأمر أن بداية المخالفة للنهج النبوى مع سلسلة من الأخطاء الإدارية و التعنتات و الأطماع من الداخل و الخارج مهدت بشكل كامل للفوضى التسلسلية فى النظام الأموى.

وكل ذلك كان بالطبع خدمة جليلة لأعداء الدولة من الروم الشرقيين و الفرنجة الغربيين و الخزر الّذين تهودوا عام 740م، و انضموا لقائمة الأعداء الدينيين لدولة الخلافة الّذين كانوا دائمًا ما يتربصون الفرصة تلو الأخرى لقضم أى قطعة تخرج عن سيطرة دولة الخلافة .

****

<u>العصر العباسى الأول (750-847م):</u>

قامت الدولة العباسية منذ البدايات عن طريق الدعوة فى البداية لتولية الحكم فى آل بيت النبى من العلويين، وبها بدأت فى اكتساب الأنصار، وكان مركز الدعوة فى خراسان ثم بدأوا شيئا فشيئا ينقلبون على هذه الدعوة و يحولونها لأنفسهم على اعتبار أنهم أيضا من آل بيت النبى.

و مع نجاحهم فى خراسان ثم بلاد فارس ثم العراق انطلق العباسيون على أكتاف الفرس يحطمون أعمدة الدولة الأموية ويثبتون أنفسهم مكانها حتى وصلوا إلى حدود المغرب العربى فى الشمال الإفريقى، ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليه أو على الأندلس التى ظلت تحت حكم الأمويين (كان هذا أول انقسام رسمى فى الحدود بين المسلمين نتيجة الصراعات الداخلية).

و على غرار الأمويين عمل العباسيون على تثبيت ملكهم و حدودهم مع الأعداء أولا قبل كل شيء.

و بما أنهم خرجوا من فارس فقد كان الشرق بالنسبة لهم ملعبًا آمنًا لايرجون منه شرًا فانصرفوا إلى تثبيت حدودهم مع الروم الّذين دأبوا دومًا على الإغارة على ثغور الشام و العراق المتاخمة لحدودهم فى فترات الثورات الداخلية. فهم إن لم يتمكنوا فى استعمارها من جديد فعلى الأقل يحرقونها للمسلمين فلا ينتفعوا منها. فكانت جهة القتال الأساسية

للعباسيين منحصرة فى منطقة آسيا الصغرى و هضبة الأناضول لتقليص خطر البيزنطيين و دفعهم للخلف (و هو ما أدى بالتالى إلى انتشار للإسلام بين قبائل الترك التى أصبحت عاملًا مهمًا فى الصراع منذ أواخر العصور الوسطى).

أما الشغل الشاغل للدولة العباسية فقد كان منصبًا على اقتلاع أى دعوة للعلويين داخل الدولة (و الذى ساعد فى إذكائها مشتعلة المساعى الفارسية لتأجيج هذا الصراع لضمان بقاء حظوتهم و شوكتهم قوية لدى العباسيين).

و لقد اتخذ الفرس من البقية الباقية من آل البيت من العلماء الأجلاء - الذين كان كل المسلمين ينهلون من علمهم و الّذين نأوا بأنفسهم أساسًا عن الصراع السياسى و ركزوا فقط فى توعية الناس بأصول دينهم- وقودًا لهذا الصراع فهم فى البلاط العباسى ساعين للقيام بدور حامى السنة و المحافظ على نهجها، بينما هم فى وسط الشيعة داعين لكل أنواع انحراف العقائد و التصوير أن آل البيت هم من يحثوا الناس على اتباعها.

و لقد كانت من نتائج هذه اللعبة المزدوجة أن انتشرت فى أوساط العامة خاصة فى العراق و فارس دعوات فرق الروافض المنحرفة ما حدا بخلفاء بنى العباس على إنشاء ما عُرف بديوان الزندقة لمواجهة سيل الانحرافات

obeikandi.com

الفكرية الذى بدأ ينساب من عهد الخليفة محمد المهدى مارًا بموسى الهادى و هارون الرشيد.

وبدلا من أن يقوم هذا الديوان بمهمته لمواجهة ظاهرة الغلو و الزندقة فقد اتخذته حاشية الخليفة ملعبًا للدسائس و المؤامرات بينهم بعضهم البعض تارة و تارة فى اضطهاد كل من تسول له نفسه الطعن فى ذات الخليفة و الصدع بكلمة الحق.

فأصبح من السهل فى عهد أوائل خلفاء بنى العباس أن يُتهم أى شخص بتهمة الزندقة للتخلص منه، مع العلم بأن كثير من الزنادقة كانوا يحيون داخل البلاط العباسى نفسه.

ولقد سعى الكثيرون من عقلاء علماء المسلمين للتصدى لهذه الظواهر على مستوى الحكام و المحكومين على حد سواء، و نتج عن ذلك مناظرات و معارك فكرية مستمرة بين أتباع المذهب الأصولى (من يسعون لرد المسلمين لأصل المنهج النبوى) و الّذين خرج منهم المذاهب الأربعة و المذهب الليثى و المذهب الجعفرى (و لا نقصد به جعفرية الإثنى عشرية، و إنما نقصد بها المذهب الأصيل للإمام جعفر الصادق الذى لم يخالف أى من عقائد و أصول جماعة المسلمين) فى مواجهة مذاهب الروافض الّذين

obeikandl.com

كانوا يعتمدون على الزج بأسماء آل البيت كذريعة لإثارة الفوضى فى أرجاء دولة الخلافة وبين المعتزلة الّذين تأثروا بالفلسفات الإغريقية والهندية و غيرها من الفلسفات، وأدخلوها على منهج الدين الواضح فأبهموه على الناس (كانوا هؤلاء بداية من يُعرف الآن بنخبة المفكرين الّذين ليس لهم من عمل إلا الجدل).

إلا أن عقلاء المسلمين كانوا دائما ما يتعرضون للاضطهاد والتعذيب بسبب مواقفهم المتزنة، وصدعهم المستمر بالحق ولو على أنفسهم وهو ما أدى إلى دخول كثير من أتباعهم بعد ذلك فى منطق الغلو فيهم والقول بصوابهم الدائم لتحملهم المشاق فى سبيل الحق، فبدلا من اتحاد الصف انقسم المسلمون أكثر فأكثر وهذه المرة السنة أنفسهم فظهرت منهم طوائف اعتزلت كل كلام عن الحكم والمعاملات وتفرغت للزهد والعبادة، فظهرت معهم مذاهب التصوف ودخلت عليها مبادئ التصوف الهندى البوذى، وألغاز الكلام فأسرفوا فى الانغماس فى فلسفات بدلًا من أن تقربهم من الأصل أبعدتهم مرات ومرات.

ولقد كانت محنة خلق القرآن التى تعرض علماء المسلمين فى عهد المأمون الذى كان معتزلى الهوى والحاشية سببًا فى انكفاء عديد من علماء المسلمين على الغلو فى التأصيل والتشدد فى التحوط لأمور الدين ما أدى إلى انضمام فئة جديدة من المسلمين إلى ركب الخوارج المتشددين.

وعليه فقد كان العصر العباسى الأول صراعًا داخليًا مستمرًا عمد على تأجيجه نخب الفرس والعرب من الرافضة وساعد على انتشاره التخبط الشديد لبنى العباس ما بين ترف يصل إلى الإسراف، وتأثر واضح شديد بحركات الترجمة والنقل عن الحضارات الوثنية القديمة خاصة فيما يتعلق بأمور الفلسفة (ولا نقول باقى فروع العلم فالدولة العباسية يُحسب لها النشاط العلمى الضخم فى كل المجالات) وبين محاولة للظهور بمظهر الخلفاء اللائقين للرسول (وهو ما فشلوا فيه فشلا ذريعًا).

وقد وصلت العلاقة بين فرق المسلمين المتناحرة فى أواخر العصر العباسى الأول لنقطة اللاعودة؛ حيث تحولت الجروح العميقة إلى فوالق أرضية ضخمة، وأسوار عالية كانت تتجهز لتفسيخ وتقطيع أوصال الدولة الإسلامية بمجرد أول بادرة على ضعف الخليفة.

ويكفى بالدولة العباسية من العار أن كانت أول من مَالَأ الغرب المسيحى على دولة الأندلس المسلمة؛ حيث حرصوا على إقامة علاقات طيبة مع شارلمان ملك الفرنجة لضمان تثبيته لدولة الأندلس الأموية والتى كانت هى الأخرى تتجهز للتفسخ؛ بسبب استمرار النعرة القومية بين العرب والبربر والمولودين من الاختلاط بين العرب والأيبيريين أنفسهم (الذين عُرفوا بالموريسكيين).

ومع خلافة المعتصم بدأ يدخل فى المعادلة عنصر صراع آخر على السلطة و هم قبائل الترك التى أسلمت و أصبحت عماد دولة بنى العباس منذ عهد المعتصم (التركى الأم).

ولقد عمل الوجود التركى فى دولة بنى العباس على إبطاء و انكفاء المذاهب الرافضية لفترة من الزمن؛ نظرا لأن الأتراك كانوا من أشد الأعراق تمسكا بمذهب أهل السنة (وربما يرجع هذا إلى العداءات القديمة بين سكان آسيا الصغرى و الفرس منذ أيام الإغريق)، وهو ما سترثه بعد ذلك الدولة العثمانية السنية فى صراعها مع روافض الصفوية فى أواخر العصور الوسطى.

ومع وفاة الخليفة المتوكل عام 847م بدأت خلفاء بنى العباس بالضعف و مع أول بادرة لهذا الضعف بدأت فوالق الخلافات الداخلية تتحرك لإكمال خطة السقوط الداخلى لدولة الإسلام.

إن مراحل الفتنة المتعددة كان يمكن أن يتفاداها المسلمون لو أنهم ردوا أمورهم إلى محكم كلام الله و أقوال رسول الله المعتمدة، و التى كان فيها حلٌّ لكل ما قابله المسلمون ولكن الغضب الأعمى و التشكك و الريبة، إضافة إلى المندَسِّين من كل حاقد على يوتوبيا الإسلام جعل الدولة تهوِى سريعا إلى هاوية التمزق.

لم تكن المشكلة أبدا فى منهجية الإسلام ولا معاييره ولكن كانت المشكلة فى التزام القائمين على المنهج بتطبيقه معياريا كما أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم.-

بسم الله الرحمن الرحيم (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) صدق الله العظيم(النساء، 83).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنذ العصر العباسى الثانى بدأ التفسخ والانحلال يصيب دولة الإسلام بشكل وبائى، وكان ذلك التفسخ الوبائى توطئة لصدام عنيف بين المشرق الإسلامى والغرب المسيحى على مدى قرنين من الزمان فيما عُرف باسم الحملات الصليبية .

****

العالم ما قبل الحملات الصليبية(847-1095م)

مع حلول النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى بدأ العالم القديم يتجلى كعقدة متشابكة من القوى المتصارعة كقوة منفردة فى مواجهة بعضها البعض تارة أوكتحالفات متصادمة تارة أخرى.

وفى تلك الفترة التى امتدت لقرنين من الزمان بدا أن النظام الإمبراطورى القديم - المتمثل فى ملكيات بيزنطة والصين- والوسيط (المتمثل فى دولة الخلافة الإسلامية- قد وصل لحالة مزرية من الترهل والاهتراء وآن له أن يختفى فمع ضعف سلطة الأباطرة على أملاكهم الواسعة بدأت الأقاليم الواقعة فى نطاق سيطرتهم تنزع إلى تكوين إمارات مستقلة مع الاحتفاظ بسلطة الإمبراطور الاسمية كرمز-كما حدث مع الخليفة- أومنازعته سلطانه، وانتقاص مساحات من أراضيه -كما فى حالات بيزنطة والصين-، وانضمت بذلك تلك الممالك المتنازعة دائما معًا إلى قائمة سابقيها من الأقاليم المتنازعة منذ انهيار الإمبراطوريات القديمة (مثل أقاليم أوروبا الغربية).

وقد وجدت هذه الممالك فى الخلافات المذهبية والدينية والأطماع فى الألقاب أوالثروات ملجأً لتفريغٍ عامٍ لحالة فوضى عارمةٍ اجتاحت العالم القديم من الشرق الأقصى إلى الغرب الأطلنطى.

وكان من الطبيعى فى خضم هذه الحالة من الفوضى العارمة أن يُطل دعاة الفوضى بخططهم الخبيثة لتأجيج عوامل الصراع بما يخدم مصالحهم، و زيادة ثرواتهم، ونشر مذاهبهم المنحرفة، ونظمهم المعتلة بين شعوب العالم.

<u>ويتبين ذلك من القوى الموجودة على الساحة كالتالى :</u>

-دولة الخلافة العباسية: والتى بدأت فى الانحدار مع وفاة الخليفة المتوكل و اشتداد الصراع فى البلاط العباسى خاصة بين الحريم على تولية أبنائهم الحكم، حتى لو كانوا غير أكْفَاء وهو ما أدى لتولّى سلسلة من الخلفاء الضعفاء النازعين إلى حياة اللهو والمجون.

ومع ظهور هذه البادرة من الضعف ووجود الفوالق المذهبية والعرقية التى سبق لنا ذكرها بدأت أوصال وأقاليم الدولة بالتفسخ السريع تبعا لقوة الحاكم المسيطر على الإقليم.

ففى بلاد العراق وفارس استغلت جماعات من الفرس والديلم ضعف الخلافة وبدأت تكون دويلات ما لبث أن امتد سلطانها إلى بغداد نفسها مع نفاد إحداها وهى دولة بنى بويه، وتبعا للخطة الفارسية بنشر مذهب الروافض بانحرافاته المعروفة أظهرت هذه الدولة عقيدتها التى كانت خليطا من السبئية والزرادشتية مع صبغة إسلامية متشيعة بما عُرف بالإمامية الاثنى عشرية، وفى مصر كانت الدولة الطولونية ثم الإخشيدية و

obeikandi.com

اللتان ظهرتا فى مصر كتابعين للخليفة العباسى ولمواجهة دولة العُبيديين الشيعية فى المغرب وكانوا على قدر كبير من الاستقلالية عن دار الخلافة.

أما فى المغرب و أطراف الحجاز فقد تكونت دولتان منبثقتان من المذهب الباطنى الإسماعيلى -من أشد المذاهب الرافضية تعصبا ضد السنة- فنشأت فى المغرب دولة العُبيديين نسبة إلى عُبيد الله المهدى و التى تحول اسمها فيما بعد للدولة الفاطمية و سيطرت على جزء كبير من الشمال الإفريقى حتى تمكنت من دخول مصر فى أواخر عهد الإخشيديين و بسطت سيطرتها على أجزاء من الشام و تسمت بالخلافة الفاطمية.

و فى أطراف الحجاز كانت دولة القرامطة التى انتشرت فى البحرين و عمان حتى أطراف العراق و هاجمت بيت الله الحرام و قتلت فيه كثيرًا من الحجاج و استولوا على الحجر الأسود مدة عشرين عامًا.

و فى آسيا الوسطى و الصغرى كانت السيطرة للعرق التركى من أفغان و تركمان و قوقاز و الّذين ألفوا عددا من الممالك بدءًا من الدولة الغزنوية و التى قام سلطانها بالإغارة على أراضى الهند بعنف لضمها لممتلكاته -وهو ما ساهم بعد ذلك فى نوع من العداء المتبادل بين المسلمين و الهندوس-.

وفى الأندلس كانت الدولة الأموية تلفظ أنفاسها الأخيرة ليحل محلها مجموعة من الممالك المتنازعة بين عرب وبربر وتدخل فى حروب أهلية تنهكها وتضعفها فيما عُرف باسم حقبة ملوك الطوائف.

وقد وضح هنا أثر العداءات المذهبية القديمة التى ولدتها أيادى المنحرفين من الحاقدين على نظام الإسلام الأصيل، وأزكت نار عداوتها ظلم رؤوس الدولة الأولين.

وقد تبادل الصراع خلال تلك الفترة داخل الدولة طرفان: العرقُ التركى الذى اعتنق المذهب السنى وعمل على مقاومة المد الرافضى بشتى السبل خاصة فى دار الخلافة. وكان مدعوما ولوروحيا ولوجيستيا من الخليفة السنى، وذلك فى مواجهة العرق الفارسى الرافضى (ونكرر هنا ليس على وجه التعميم فلم يكن كل الفرس رافضة، وكان منهم الكثير على مذهب أهل السنة) الذى عمد إلى محاولة تخريب معالم النظام الإسلامى بشكل كامل مع كل الانحرافات التى امتلأت بها عقيدته بدعوى محاربة أهل السنة المغتصبين لحقوق آل البيت.

ومع تقدم العنصر التركى فى الصراع، حيث دانت له الأقاليم من الهند إلى العراق ثم الشام والحجاز وآسيا الصغرى من أراضى بيزنطة وتأسيسه الدولة السلجوقية القوية ونجاحه فى القضاء على الدولة البويهية ودولة القرامطة، تحولت الجماعات الرافضية إلى طريقة العمل السرى حيث

تأسست أولى المنظمات السرية فى العصر الوسيط والتى عُرفت بطائفة "الحشاشين"، وكونت لها مجموعة من القلاع القوية فى إيران والشام، واستهدفت اغتيال رؤساء العشائر السنية وقطع الطرق بشكل دائم -تم تحريف اسمها فى اللغة الإنجليزية لمصطلح القتلة -Assissans وكان ذلك بدعم من الدولة الفاطمية الباطنية أيضا والتى اتخذت من الجامع الأزهر فى مصر مركزًا لنشر الدعوة الشيعية فى كل من مصر والشام وشمال إفريقية.

"-الدولة البيزنطية": والتى تأرجحت أحوالها ما بين القوة والضعف على مدار تلك الفترة الزمنية تبعا لقوة وضعف ملوكها وتبعا لقوة وضعف جيرانها.

فقد ذكرنا سابقًا أن حركة الفتوحات الإسلامية للمستعمرات البيزنطية قد حرمت تلك الأخيرة من كثير من الموارد الهامة، وأضرت باقتصادها ما حَدَا بأباطرة بيزنطة إلى التحول شمالًا بحثًا عن مستعمرات جديدة تعوض بها خسائرها فى الشرق وهو ما أدخلها فى صراعات عنيفة مع قبائل البلغار والخزر والمجريين والروس -الذين كانت قوتهم فى ازدياد مع الهجرات المتواصلة من آسيا ومن سواحل الفايكنج الإسكندنافية- تفاوتت فيها الانتصارات العسكرية: تارة بين بيزنطة وتارة بين القبائل، وتخللتها فترات متفاوتة من السلام لجأت فيه بيزنطة إلى نشر المسيحية بين تلك القبائل

الوثنية على غرار منطق (إن لم تستطع هزيمتهم فتحالف معهم) وقد استغلت بيزنطة هذه التحالفات فى أوقات مختلفة عند الحاجة، فتارة تستخدم الخزر ضد العرب، وتارة الروس ضد الخزر، وتارة أخرى ضد البلغار، وتارة تتحالف مع البلغار لصد هجمات المجريين والعكس ما جعل منطقة البلقان ومنطقة بحر قزوين ساحة حروب متصلة.

وزاد على ذلك أن ضعف الدولة العباسية شجع القسطنطينية على إعادة غزو بلاد الشام مرة أخرى والذى كان أشبه بإغارات قطاع الطرق تنجح مرة وتفشل مرات.

ومع بزوغ قوة دولة السلاجقة التركمانية فى أواخر القرن التاسع ونجاحها فى القضاء على دولة البويهيين ومد سلطانها على طول آسيا الوسطى، تصادمت بشكل مباشر مع الدولة البيزنطية وحققت عليها انتصارات كبيرة فى آسيا الصغرى، بل وهددوا القسطنطينية نفسها فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى وهو ما كان أحد أسباب قيام الحملات الصليبية .

-أوروبا الغربية المسيحية: ذكرنا سابقا أن الإمبراطورية الرومانية الغربية قد انهارت فى عام 476م على إثر هجمات القبائل الجرمانية المتكررة والتى ازدادت منذ نهاية القرن الثالث الميلادى حتى تمكنت بعض هذه القبائل من فرض وصايتها على روما فى أوائل القرن الرابع والتى لم تستمر طويلا حتى ألغت الإمبراطورية بشكل كامل.

ومع انهيار السلطة الإمبراطورية فى روما خلت أوروبا من أى مظهر لمظاهر السلطة المركزية الرومانية إلا واحدة فقط: الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

ولقد قاست الكنيسة البطرسية الرومانية -شأنها شأن كل الممتلكات الرومانية- من هجمات البرابرة المتكررة على أديرتها وأملاكها وقاست فى ذلك الأمرين وإن كانت لم تتحطم تماما؛ فالإمبراطورية الرومانية الشرقية -والتى كانت ما تزال على قدر كبير من القوة فى ذلك الوقت- نجحت فى القضاء على خطر الواندال والقوط الشرقيين وبسطت سيطرتها على الكثير من المناطق الإيطالية ما أمن بعض الحماية للكرسى الرسولى و الكنيسة الكاثوليكية لما يقرب من قرن ونصف. كما أن القبائل الجرمانية نفسها التى كانت على احتكاك مع الإمبراطورية الرومانية الغربية سلما و حربا لم تكن مهتمة بالقضاء على سلطة الكنيسة الدينية، وإنما كان اهتمامها منصبا على موراد الأرض.

وقد أدت حالة الفراغ فى السلطة إلى تطلع أساقفة الكنيسة إلى الحلول محل السلطة الإمبراطورية خاصة مع نجاح العديد من بعثاتهم التبشيرية فى نشر المسيحية بين قبائل الفرنجة والقوط الغربيين. فبدأت تتحول الكنيسة من مجرد سلطة دينية خاضعة للإمبراطور إلى قوة لها ثقلها فى الغرب الأوروبى مع تحول العلاقة بينها وبين عدد من القبائل الأوروبية إلى

تحالفات استراتيجية وبَدَا ذلك واضحا مع قيام الدولة الميروفينجية على يد قبائل الفرنجة تحت قيادة شارل مارتل، والذى أراد أن يسبغ على نفسه صفة القدسية الإلهية (نظرية الحكم الإلهى)؛ لتعزيز سلطته فى أوروبا، و قد نجح فى ذلك خاصة مع انتصاره على الجيش الإسلامى بقيادة عبد الرحمن الغافقى فى معركة بلاط الشهداء عام 732م.

ولقد كانت علاقة الكنيسة الكاثوليكية مع الإمبراطورية البيزنطية علاقة متأرجحة بين التقارب والتباعد فى ضوء بروزكنيسة القسطنطينية كمنافس شرس للكنيسة الرومانية على عرش زعامة كنائس العالم وذلك بدعم من أباطرة بيزنطة. ولقد ازدادت هذه العلاقات تباعدًا وتدهورًا مع فقدان الدولة البيزنطية للعديد من جزر البحر المتوسط لحساب المسلمين وكذا دخول القبائل اللومباردية فى معادلة السيطرة على الأراضى الإيطالية.

كما أن الخلافات المذهبية بين الكنيستين سارعت من معدل الانهيارفى العلاقات بين كنيسة روما والدولة البيزنطية فيما عمدت الكنيسة الكاثوليكية على تعزيز سلطانها بعقد التحالف مع ملوك الدولة الكارولينجية الفرنجة الّذين ورثوا الدولة الميروفينجية وتعزيز موقفهم فى أوروبا فى مقابل المكاسب والمقاطعات التى كانت تعود على الكرسى الرسولى، وقد وصل العلاقات من القوة أن قام البابا ليون الثالث بترسيم

شارلمان إمبراطورًا لما عُرف بالإمبراطورية الرومانية المقدسة فى محاولة لإحياء مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة.

ومع حلول القرن التاسع الميلادى تحولت الساحة الأوروبية إلى ملعب للصراع بين مجموعة مختلفة من القوى، بين أبناء ملوك الدولة الكارولينجية المتصارعين على السلطة -ففى تلك المرحلة بالذات بدأت تظهر ملامح العداوة بين الشطر الألمانى والشطر الفرنسى للإمبراطورية الكارولينجية؛ وذلك لانحياز البابا الواضح للملوك الفرنسيين الكارلونجيين ومن بعدهم سلالة "كابيه" المؤسسة للملكية الفرنكية فى فرنسا- وبين غزاة الشمال من الفايكنج والنورمان وغيرهم تحولت معها أوروبا إلى مقاطعات وإقطاعيات متفرقة سعى الكثير منها إلى خطب ود البابا فى روما أو السيطرة عليه لضمان تأييد العموم الشعبى لسلطانهم ما ساهم على ترسيخ السلطان الدنيوى للدولة البابوية، وأصبحت معها البركات الدينية البابوية تصدر لمن يدفع أكثر، وسَعَى الكثيرُ من الأسر ذات النفوذ والثروة بالسيطرة على منصب البابا لضمان تدفق الثروة إلى أعدائها، وعند هذه النقطة بالذات برز نفوذ الكثير من الجماعات اليهودية.

-الجماعات اليهودية: ذكرنا سابقًا أن الجماعات اليهودية قد انتشرت حول العالم وكونت جاليات مستقرة منذ التوسع الفارسى الإخمينى، وقد ازداد

obeikandi.com

انتشارها حول العالم مع الفتوحات الرومانية للمنطقة، ثم التدمير الرومانى لبيت المقدس الذى بدأ معه فترة الشتات الكبرى لليهود.

ولقد استقرت جماعات مختلفة من اليهود فى مصر والشام وبلدان آسيا الصغرى -والتى نفذوا منها إلى مملكة الخزر التى تهوَّدت عام 740 م وكوّنت معها العماد الرئيسى ليهود العالم- كما استقرت منهم أعداد فى إيطاليا و أسبانيا و الممالك الأوروبية المختلفة فى فرنسا و إنجلترا و ألمانيا.

ولقد استغل اليهود حالات الاضطراب التى كانت تسود الأراضى الأوروبية، كما استغلوا مبدأ التسامح الإسلامى فى عهد الفتوحات الإسلامية وكَوّنوا مراكز مالية اعتمدت على مبدأ الإقراض الربوى لأمراء المقاطعات الأوروبية وبارونات الحروب لتمويل حملاتهم العسكرية و مشاريعهم المختلفة، وحصلوا معها على امتيازات خاصة؛ حيث أصبحت لهم القدرة على الحركة بحُرّية داخل حدود القارة الأوروبية كما أن قوانين الكنيسة لم تكن تنطبق عليهم، وتم وضعهم تحت الحماية المباشرة للملوك و الأمراء و ظهر معهم مصطلح (أقنان البلاط: أى تحت الحماية المباشرة للبلاط الملكى) ولقد اتصلت هذه المراكز مع بعضها بشبكة مراسلات قوية وسرية (وضحت من رسائل حاخام اليهود الأكبر فى الأندلس لملك الخزر اليهودى و التى يتبادلون فيها الود و العلاقات).

وترافق النشاط المالى اليهودى داخل القارة الأوروبية مع محاولة اليهود المستمرة التغلغل داخل النفوذ الدينى المسيحى نفسه فظهر مصطلح اليهود المتحولين (وهم اليهود الّذين ادّعوا التنصر أو الإسلام بغرض التسلل إلى داخل المجتمعات المسلمة أو المسيحية وبث الأفكار المنحرفة لليهود داخل هذه المجتمعات وهى عملية قديمة بدأها بولس الرسول، و قلدها عبد الله بن سبأ فى الفتنة الإسلامية الكبرى).

وتكلل السعى اليهودى فى التغلغل داخل الكنيسة الرومانية بوصول مجموعة من البابوات المنتمين -إما بالنسب أوبالتعليم- لإحدى أسر اليهود الإيطالية النافذة والمعروفة باسم (أسرة بيرليونى) لمنصب الكرسى الرسولى مع أواخر القرن التاسع الميلادى -بدأت مع البابا غريغورى السادس- وعزز معه الانحطاط الأخلاقى للكنيسة الرومانية.

هذا التغلغل المالى والسياسى والدينى للجماعات اليهودية فى القارة الأوروبية ساهم بشكل فعال فى المزيد من حالات الانفلات والفوضى و الحروب بين المقاطعات الأوروبية المختلفة، وهو ما أحال أوروبا المسيحية لبركان على حافة الانفجار، وكان لابد لتفريغه من صهر هذا الصدام الأوروبى المسعور وإطلاقه على مناطق أكثر ثراء يعود نفعه على النُخَب الثرية المختلفة من اليهود وأمراء المقاطعات وملوك أوروبا المختلفين (ومن كان أكثر ثراءً فى العالم من المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت؟).

فكانت بداية المشروع الصليبى الاستعمارى والصدام الأكبر بين المسيحيين والمسلمين منذ عهد الفتوحات الإسلامية.

<u>الحملات الصليبية (إن بلاد الشرق تفيض لبنا وعسلا)</u>

تعد الحملات الصليبية أول ترجمة حقيقية لاستغلال الصراعات على الموارد، والصدامات المذهبية المختلفة، وتزاوج عوامل المال والسلطة، و نقاط الضعف الموجودة فى الجهات الداخلية التى نشأت عبر العصور المختلفة فى مشروع واحد متكامل بغرض فرض السيطرة الكاملة على بقاع الأرض الغنية، وتحويل مواردها للنخب المستفيدة المتحالفة والتى لم يجمعها من شيء إلا عامل الطمع الخالص.

فالمتأمل فى القوى الموجودة على الساحة فى تلك الفترة كما ذكرناهم يجد أن العالم القديم قد أصبح شبه منقسم إلى جزئين أساسيين:

-فريسة -وهي متمثلة فى دولة الخلافة العباسية- تنازع للاحتفاظ بأوصالها فى مكان واحد غير متمزق وكلما رَتَقَت جزءًا منها تَمَزَّق جزءٌ آخر، وهى مع ذلك تفيض بخيرات كثيرة من تحكم إماراتها المختلفة فى طرق التجارة العالمية، واحتوائها على الكثير من بقاع الأرض الخصبة القابلة للاستزراع والاستقرار، وأموالها تتدفق على المحيط العالمى بصورة يسيل لها لُعابُ الجَوْعَى والمحرومين.

-و مفترسات متنوعة كالآتى:

•إمبراطورية بيزنطة القديمة التى لم تزل تحلم باستعادة مجدها المفقود على يد المسلمين الأوائل، وكلما لمحت فرصة ضعف من دولة الخلافة انقضت كالعقبان تنهش منها ما تستطيع من ثغور و حصون و تفر مع أول بادرة للقوة من الدولة الإسلامية.

•طفيليات الماكز المالية اليهودية العالمية المتوزعة فى روما و جنوة و البندقية، إضافة للموجودين أصلًا فى البلاد الإسلامية المختلفة و الأندلس وزملائهم من المرابين الموجودين فى الكيانات الأوروبية الداخلية و الّذين سال لعابهم من حجم التجارة المتبادلة بين بلاد الإسلام و مقاطعاتهم المختلفة و هم على ذلك يدفعهم جشع التاجرلتحقيق المزيد من الربح عن طريق التحكم فى منابع الثروة.

•دولة السلطة البابوية و التى ما فتئت تحلم باستعادة مجدها الكنسى الرومانى القديم بفرض سيطرتها على كنائس العالم المختلفة و ما سيدره ذلك عليها من ثروات و نفوذ و قوة تجعلها تتخطى بسلطانها الدينى و تحكمها فى جموع العامة أعظم من سلطة أى إمبراطور رومانى قديم (خاصة مع انفصال الكنيسة الكاثوليكية عن بيزنطة عام 1054م على إثر قضية عبادة الأيقونات المذهبية).

obeikandl.com

•ثم كان آخرها ذئاب المقاطعات الأوروبية المسعورة التى تتصارع كل منها على موارد أوروبا الفقيرة فى ذلك الوقت، وتطمع بشكل دائم فى الخروج من فوهتها الضيقة عن الطريق الصدام مع كل المحيطين بها: تارة مع مسلمى الأندلس، وتارة مع دولة البابا، وتارة مع المرابين اليهود، وتارة يشطح بهم الأمل فيشنُّون إغارات متقطعة على أملاك الدولة البيزنطية، ومرات كثيرة مع بعضهم البعض؛ ما جعل أوروبا الوسيطة حلبة صراع دموية مستمرة ممتلئة بالجموع الصارخة من الفقر المُدقِع، والساخطة على كل مالكى الثروات من كل الأعراق والفئات والأجناس.

تلاقت كل هذه المفترِسات على مصلحة واحدة: بذر بذرتها وزرعها طفيليات اليهود التى كانت أوسع مركز إتصال مع المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت بتجاراتهم الكبيرة.

وترسخت هذه الفكرة وبدأت فى النمو منذ الاحتكاك الأوروبى الأول مع الأندلس وصقلية التي كانت أقرب المراكز الإسلامية فى ذلك الوقت لأوروبا فى عهد شارل مارتل وما تلاه من معارك مختلفة كان النصر يتأرجح فيه تارة للأوروبين وتارة للأندلسيين.

ومنذ عهد البابا غريغورى السادس -والذى ذكرنا سابقًا انتماءه لأسرة بيرليونى اليهودية- بدأ التفكير الجدى فى غزو بلاد الشرق يتعاظم لدى البابوات الكاثوليك -وهو شيء طبيعى؛ فعندما تكون مريضا بطفيل

يتحكم فى دماغك، فمن السهل جدا انتشار عدواه إلى باقى أجزاء الجسد- و ساعد على ذلك حالة الفوضى المترَدِّية التى باتت تعانى منها أوروبا الغربية؛ نتيجة صراعات أبناء الأسرة الكارلوينجية على العرش بالإضافة لدخول المحاربين النورمان الأشداء الّذين شكلوا تحالفا قويا مع الكنيسة و غزاة الشمال من الفايكنج إضافة للفرنجة و الساكسون لحلبة الصراع، و كذا الانتصارات التى بدأت تحققها دوقيات قشتالة و أراغون و ليون -التى كانت تكوّن جيوب المقاومة المسيحية للمسلمين فى الأندلس- على المسلمين فيما عُرف بحروب الاسترداد و التى توجوها بالاستيلاء على طليطلة عاصمة القوط القديمة من المسلمين عام 1085م (و التى لولا تدخل دولة المرابطين من المغرب لقضوا تمامًا على المسلمين فى الأندلس).

كما أن رحلات الحج إلى الأراضى المقدسة و التى ابتدعتها كنيسة روما (مستغلة بذلك التسامح الإسلامى) وفّرت لها عوامل معلوماتية قوية للوقوف على قوة المسلمين و حجم الخلافات بينهم، بل و بدأت تزرع فى قلب المناطق المستهدفة منظمات سرية من الفرسان المترهبنين بحجة القيام على خدمة هؤلاء الحجاج و علاجهم و تطبيبهم -و هم من عُرفوا بعد ذلك بمنظمة فرسان القديس يوحنا أو الإسبتارية نسبة إلى دورهم الطبى- و كانت هذه أول تنظيمات سرية تنشأ فى العالم الأوروبى المسيحى (و التى ستستفيد كثيرًا من علاقتها بمنظمة الحشاشين الباطنية).

ومع كل هذه التجهيزات لم يبقَ إلا انتظار الفرصة المناسبة لإشعال الفتيل وتفجير الفوضى العسكرية القاتلة، وقد تم هذا فى عام 1095 مع تولى أفعى الفاتيكان أوربان الثانى لكرسى البابوية (وهو أيضا أحد المنتمين للمدرسة البيرليونية).

ففى عام 1095 تلقى أوربان الثانى دعوة من إمبراطور بيزنطة أليكسوس كومنين الثانى يناشده فيها إنقاذ القسطنطينية من خطر السلاجقة الأتراك الّذين كانوا دائمى التهديد لها منذ نصر السلطان ألب أرسلان على البيزنطيين فى موقعة ملاذكرد عام 1071م واستيلائه على كثير من أراضى آسيا الصغرى، والتى أدت لدخول العديد من قبائل الترك المقيمة فيها للإسلام.

وكانت هذه اللحظة التى انتظرتها كل القوى المتصارعة فى أوروبا لتفريغ قنبلة الصراعات الأوروبية الداخلية عن طريق إطلاق قطعان الذئاب على المراعى المسلمة.

وعقد أوربان الثانى على إثر ذلك مجمع مقدس فى كليرمونت, فرنسا عام 1095م داعيًا كل أمراء أوروبا وحكامها وأغنيائها وفقرائها للتوجه بجموعهم لنجدة الأراضى المسيحية المقدسة من أيدى البرابرة المسلمين (و يالسخرية القدر) وصور لهم اعتداءات المسلمين على الحجاج المسيحيين فى بيت المقدس وغيرها (وهو هنا يزرع بذرة الشيطان العالمى القادم

المعروف بالجهاز الإعلامى عن طريق نشر صور مغايرة للحقيقة أو تكبير أحداث عامة وتسليطها ليصبح ضحاياها فقط من المسيحيين، والمقصود هنا هو ما قام به الحاكم بأمر الله الرافضى من إيذاء لجموع المسلمين و المسيحيين بل واليهود فى فلسطين من جراء عدد من قراراته المتهورة المعتادة) وتعهد أوربان الثانى فى ذلك المجمع بغفران خطايا كل المشاركين فى هذه الحملات المقدسة، وأسس بذلك لمذهب جديد فى المسيحية الكاثوليكية وهى صكوك الغفران وقال قولته الشهيرة (إن أرض كنعان تفيض لبنا وعسلا).

وبهذه الخطبة العصماء وضع الكرسى الرسولى فى كنيسة روما حجر الأساس لنواة المشاريع الاستعمارية الأوروبية للشرق وانطلقت معه الجموع الجائعة تزأر بمئات الآلاف وتحلم بما ينتظرها من النعيم الدنيوى والأخروى عقب قضائها على المسلمين.

وتحت تأثير هذه الخطبة اندفع ما يقرب من مائة ألف من عوام أوروبا غير المتمرسين على القتال تحت قيادة أحد الرهبان عُرف باسم بطرس الناسك، واندفعوا سريعًا فى قلب البلقان إلى حدود الدولة البيزنطية محدثين جو مفزع من الفوضى وعمليات السلب والنهب والإحراق وهو ما كان بداية الشقاق بين إمبراطور بيزنطة الذى شعر بخطورة استعانته بهذه القطعان المسعورة ولكن أطماعه حملته على التغلب على هذا الشعور و

نقلهم سريعًا إلى آسيا الصغرى حيث اصطدموا بجيش السلاجقة الكبير الذى أفناهم تقريبا عند نيقية ولم ينجُ منهم إلا ثلاثة آلاف تم نقلم إلى القسطنطينية.

وكانت هذه الحملة المزعومة من عوامل جمع المعلومات لجموع الصليبيين الرئيسية التى تحركت من بلاد أوروبا الغربية و اصطدمت مع جيوش المسلمين و هزمتهم فى آسيا الصغرى و تقدمت سريعًا حتى وصلت للرها، و هناك برز عامل استغلال الفوضى الداخلية فحاكم الرها الأرمينى سلم المدينة بدون قتال تقريبا للصليبيين، فأسسوا فيها أولى الإمارات ثم أعقبوها بأنطاكية و التى استغلوا من فيها من الأرمن و السريان كجواسيس لهم ضد المسلمين و نجحوا فى السيطرة عليها و تأسيس الإمارة الثانية (و بسبب الصراع على زعامة أنطاكية ستبدأ عُرى التحالف الصليبى البيزنطى فى الانحلال).

كان تقدم الصليبيين دمويًا فى داخل بلاد الشام، فالمسلمين على الرغم من تفككهم لم يكونوا بالمحاربين الضعفاء وهو ما زاد من وحشية الصليبيين فى التعامل مع أهالى الشام المسلمين

ويكفى ما أحدثوه فى معرة النعمان التى ذبحوا من أهلها ما يقرب من مائة وعشرين ألفًا وكانوا فى أوقات كثيرة يأكلون لحومهم للتعويض عن نقص المؤونة الشديدة التى كانت تحل بهم مع تقدمهم.

ولقد استغل الصليبيون كل العوامل الفوضوية التى تمكنهم من تحقيق أطماعهم الاستعمارية حتى تكلل مجهودهم بالنجاح بالاستيلاء على بيت المقدس من أيدى الفاطميين (الذين انسحبوا منها سريعًا) وارتكب فيها الصليبيون مذبحة مروعة راح ضحيتها أكثر من مائة ألف مسلم فى ثلاثة أيام حتى أن الدماء كانت تصل إلى سنابك الخيل.

وانتهت الحملة الأولى عام 1099م مخلفة أربع إمارات صليبية رئيسية و عدد من المقاطعات الصليبية الصغيرة الأخرى وما يزيد عن ربع مليون قتيل مسلم من المدنيين العُزل(لاحظ هنا الفرق بين فتوحات المسلمين الملتزمين بقوانين الأخلاق والهجوم الصليبى الهمجى) وجرحًا غائرًا أصاب المسلمين فى كرامتهم فهم لأول مرة يتعرضون لمثل هذه الهزيمة الثقيلة منذ بداية الدعوة الإسلامية (وهو إن دل على شيء فيدل على مدى ما وصل له النظام الإسلامى من ترهل وتفسخ أدى للفوضى التسلسلية الوبائية). كما أنه أصاب العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق بتصدع شديد (فمسيحيى الشام بالذات من أرمن وسريان لعبوا دورًا مهمًا فى ترسيخ أقدام الصليبيين فى الشام) وسيظل هذا التصدع حتى وقتنا الحاضر.

كان عام 1099م هو ذروة نجاح المشروع الصليبى الذى انتزع العديد من أراضى الشام بما فيها فلسطين من أيدى المسلمين وأسس فيها مستعمرات كانت بمثابة خطوط إتصال مع أوروبا المسيحية.

ولكـن مـا أن فتر الحمـاس الصـليبى واسـتقر المقـام بـالغزاة الجـدد فى المسـتعمرات حتى بـدأت عمليـات النزاع القديمـة بـين الأعـراق الأوروبيـة المختلفة بالظهور من جديد ولكن هذه المرة فى أراضى الشرق، كما طفت على الساحة صراع جديد بين أمراء الصليبيين والقسطنطينية من ناحية أخرى بسـبب اسـتيلاء الصـليبيين على أنطاكيـة ورفضهم إعادتهـا لسـلطة بيزنطة (وهـو مـا أدى بالتـالى إلى تنـاقص إمـدادات بيزنطـة للصليبيين وهى التى كانت أقرب مركز لوجيستى لهم)، ومع كل ذلك نشطت جيوب المقاومة فى بلاد الإسلام للـدعوة للجهـاد والتمسـك بأصـول النظـام الإسـلامى مـن جديد ونشـطت معه محاولة إعادة الوحدة بين أقـرب الأقـاليم فى خطوط المواجهة وهو ما استلزم التقارب بين بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز ومنها خرجت جيوش التحرير الإسلامية.

وعلى مدار ما يقرب من قرنين من الزمان دار الصراع الطاحن بين المسلمين والصـليبيين مـن أجل تحرير بلاد الشـام مـن السـيطرة الصـليبية، وهـو مـا أدى بدوره إلى تكـون سلسـلة من الحملات مرة لـدعم الوجـود الصـليبى فى وجه المد الإسلامى، ومرات لمحاولة اسـتعادة الأقـاليم التى نجح المسلمون فى انتزاعها مرة أخرى من أيدى الصليبيين.

تسـع حمـلات منـذ عـام 1095 وحتى عـام 1291م شـهدت على الصـراع المستميت بين الإسلام والمسيحية كالتالى:

-منذ عام 1095-1099م الحملة الأولى: وما حققته من نجاحات وما ارتكبته من مذابح وأسفرت عن تأسيس مملكة بيت المقدس وإمارات الرها وأنطاكية وطرابلس وتأسس معها التنظيمات السرية لفرسان الهيكل (فرسان المعبد) وفرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) والتى نشأت فى الأساس لدعم النشاط المسيحى وتأمين الحجاج وتحولت

مع الوقت لتنظيمات اقتصادية ضخمة لها الكثير من الأتباع والممتلكات داخل العالم المسيحى وتأثرت فى أثناء إقامتها بالمذاهب اليهودية الصوفية (الكابالاه) والمذاهب الباطنية المبنية على عقائد الفرس القديمة لطائفة الحشاشين، ونقلتها معها إلى الغرب الأوروبى.

-منذ عام 1145-1149م كانت الحملة الصليبية الثانية: والتى تم الدعوة لها كرد فعل لسقوط إمارة الرها فى يد المسلمين، ولكنها لم تكن بزخم و قوة الحملة الأولى وتجلى فيها بوضوح أثر الخلاف الفرنسى - الألمانى فى فشل التنسيق للحملة التى تصيدها الزنكيون وأفشلوها (سيصبح مثلث الصراع الفرنسى – الألمانى- الإنجليزى أساسًا للصراعات الأوروبية فى العصر الحديث).

-منذ عام 1189-1192م كانت الحملة الصليبية الثالثة: والتى كانت تُعتبر آخر الحملات الصليبية الكبرى على الشام وكانت قوتها نابعة من صدمة استعادة المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس مرة أخرى، إذ

obeikandl.com

كانت تتكون أساسًا من ملوك أنجلترا و فرنسا بالإضافة لفريدريك بارباروسا الإمبراطور الألمانى القوى و الذى كانت قواته لتغير مجرى الصراع لولا غرقه فى أحد الأنهار ما أدى إلى تفتت وتشرذم قواته، وقد فشلت الحملة أيضًا فى استعادة بيت المقدس و إن نجحت فى الحفاظ على حصون صليبية لها فى الشام ظلت عامل إزعاج للمسلمين طوال قرن كامل حتى نجح المماليك فى تصفيتها إثر فشل الحملة التاسعة عام 1291م.

كانت للحملات الصليبية نتائج مؤثرة للغاية على الصراعات العالمية ظهرت كالتالى:

<u>أولا: نتائج على صعيد السلطة البابوية:</u>

-أدت نجاح الحملة الأولى المدوى لترسيخ سلطة الدولة البابوية كبوق إعلامى قادر على تحريك الجموع وعززت من مكانة البابوات فى أوروبا و هو ما زاد من أطماع ملوك أوروبا فى السيطرة على منصب الكرسى الرسولى عن طريق حصره فى مواطنين من دولهم. وكان هذا سببًا مهمًا فى تأجيج لهيب الصراعات بين القوى الأوروبية المختلفة وبالذات بين ألمانيا و فرنسا، إذ أن الأخيرة كانت تستحوذ على نصيب الأسد فى عدد البابوات الموالين لها سواء كانوا فرنسيين أو إيطاليين وكان ذلك بالطبع نتيجة حالة التحالف التاريخى بين قبائل الفرنجة وكنيسة روما، وهذا جعل من منصب البابا صيدًا ثمينًا وأدى هذا إلى زيادة معدلات الفساد فى الدولة

البابوية بشكل كبيروتغوله فى السلطة حتى على ملوك و أباطرة أوروبا و زاد بالتالى من معدلات الصدام بين الدولة البابوية مع ملوك أوروبا المختلفين تبعا لحالة التحالف (فالبابا إن تحالف مع فرنسا أغضب ألمانيا و إن تحالف مع ألمانيا أغضب فرنسا) حتى لقد ظهرت حالات لتنصيب أكثرمن بابا فى نفس الوقت ما جعل معه منصب الكرسى الرسولى فى حالة نزاع دائم و مهد ذلك لمزيد من التصدعات و الانشقاقات فى الكنيسة الكاثوليكية.

ثانيا: على صعيد النخب الأوروبية:

-لم تنجح الحملات الصليبية على الرغم من نجاحها فى أول الأمر من خلق حالة التعاون بين ملوك و أمراء أوروبا المختلفة. فقد ظلوا على نفس الحالة من التطاحن و التناحر على الممتلكات و الموارد و سعت كل دولة أوروبية فى جعل كل إمارة صليبية فى

الشرق امتدادًا لممتلكاتها الخاصة أو تابعة لملكية أوروبية معينة و هو ما كان بمثابة البذرة للمشروع الاستعمارى الأوروبى الحديث و الصدامات الأوروبية المختلفة (التى تحولت مع الوقت إلى صدامات عالمية).

فعلى الرغم من فشل المشروع الصليبى فى نهاية الأمر إلا أن الصدام الذى وقع بين المشرق الإسلامى الغنى بموارده و بين الغرب المسيحى المصاب بأمراض الفاقة و سعار الحاجة للتوسع نبه النخب الأوروبية لأهمية بناء

مستعمرات خارج أوروبا تضمن لهم التحكم فى طرق التجارة العالمية بالإضافة لتدفق ثابت للموارد والمواد الخام (وستتضح معالم هذا المشروع مع عصور الاكتشافات للعالم الجديد) وهو ما سيضع الإطار الفاعل بعد ذلك لمشروع الفوضى العالمية.

ثالثا: على صعيد الجماعات اليهودية: لقد لعبت الجماعات اليهودية دورًا كبيرًا فى المشروع الصليبى الأول من حيث تأجيج الصراع بين الأوروبيين عن طريق تمويل مشاريع الحروب المختلفة بينهم لخلق موجة انفجارية من الفوضى التسلسلية داخل أوروبا ما دفعهم لتفريغ هذه الفوضى والصراع المستعر فى عدو واحد (أصبحت هذه سمة مميزة لمشاريع الفوضى العالمية فكلما خبا نجم عدو سعت النخب المتعطشة للقوة والثروة للبحث عن عدو جديد لشغل العوام دومًا ومنعهم من إطلاق موجات الفوضى داخل الدولة). كما أن نخب اليهود بانحرافاتهم النفسية سعوا لخلق حالة من العداء المفرط للإسلام داخل الأراضى الأوروبية عن طريق التحكم بالبوق الإعلامى الأكثر قوة فى ذلك الوقت (أى بابا روما كما سبق أن ذكرنا) و بذلك حققوا أكثر من مكسب فى نفس الوقت فهم من ناحية يسيطرون على النظام النقدى الأوروبى عن طريق إقراض الجيوش المشاركة فى الحملات الصليبية، ومن ناحية أخرى يشفون أحقادهم القديمة على كل من الإسلام والمسيحية برؤيتهم فى حالة مستعرة من الصدام الدائم المتولد

عنه مزيد من الضحايا، وكلما كان الضحايا أكثر كان العداء أكثر والمكاسب من تجهيز جيوش جديدة أكثر.

ولكن مع فشل المشروع الصليبى واندحار الجيوش الغازية انقلبت اللعبة على اليهود بشكل مؤقت إذ أن الملوك الأوروبيين والعامة حملوا نخب اليهود مسئولية إعداد وفشل الحملة وإثقال كاهل أوروبا بمزيد من الديون بسبب قروضهم الربوية لتمويل الحملات العسكرية وقد أدى ذلك إلى ما عُرف بمرحلة الإجلاء الكبير لليهود من أوروبا إذ أصدر العديد من ملوك أوروبا بدءًا من ملك فرنسا لويس التاسع عام 1253م ومرورًا بملك إنجلترا إدواد الأول عام 1271م وتبعهم الكثير من ملوك وأمراء أوروبا، حتى اضطر الكثير من عامة اليهود إلى الهجرة للمشرق الإسلامى الأكثر تسامحًا (وهو نفس المشرق الإسلامى الذى خططوا لإغراقه فى بحور الدم من أجل مطامعهم الجشعة) والباقون تم حصرهم فى تجمعات خاصة عُرفت بالجيتو اليهودى فى أوروبا أو تحولوا إلى شرق أوروبا حيث؛ التحموا مع يهود الخزر مكونين طائفة اليهود اليديشية التى شكلت غالبية القومية اليهودية فى العصور الحديثة، ولكن النخب الخاصة منهم التجأوا لمبدأ التلون المعتاد واستخدام نفوذهم للبقاء فى البلاطات الأوروبية عن طريق حيلة التحول الدينية القديمة (تحول عن العقيدة اليهودية جهرًا وأبقى عليها سرًا) والتى تم مواجهتها عن طريق إحدى أبشع الوسائل فى التاريخ المسيحى وهى محاكم التفتيش والتى أسستها الكنيسة لملاحقة ومراقبة

اليهود المتحولين، ولكن سلطاتها تغولت لتصبح وسيلة لقمع المسلمين الأندلسيين ثم أى محاولة للتجديد والمعرفة تتعارض مع أقوال الكنيسة بدعوى الهرطقة واستخدمت فيها الكنيسة أبشع وسائل التعذيب و الإيذاء ضد أعدائها (كانت هذه المحاكم أحد أكثر الأسباب التى عجلت بانهيار السلطة البابوية).

رابعا: على صعيد التنظيمات السرية:

والتى ذكرنا سابقا أنها تأسست فى فترة الحروب الصليبية من جماعات من الفرسان الفقراء(فرسان المعبد) والرهبان (فرسان الإسبتارية) بهدف تقديم الدعم للصليبيين وحماية المدنيين من هجمات المسلمين (أو هكذا زعموا)، ولكن المكاسب التى حققتها هذه الجماعات السرية مع حصولها على بركات البابا وانضمام الكثير من العوام الأوروبيين بل ومن ذوى الشأن من النبلاء إليها، إضافة إلى إحتكاكها بكتب وعقائد الصوفية اليهودية (الكابالاه) ومذاهب الباطنية الفارسية كل ذلك جعل من هذه التنظيمات جماعات إجرامية تستخدم نفوذها وسلطانها وثرواتها وثقة الناس بها فى سبيل الوصول لأكبر قدر من الثروات، وقد بلغ بها من النفوذ أن أصبحت بمثابة دول داخل الدول الأوروبية المختلفة وأصبحت أملاكها تنازع أملاك الكنيسة والملوك، إضافة إلى أن تأثرها بعقائد اليهود والفرس جعلها تتقارب بشكل كبير مع النخب اليهودية فى المذهب وأسلوب التعايش وهو ما جعلهم عرضة لنيران الملوك بعد فشل المشروع الصليبى وخاصة

فرنسا و إنجلترا و ألمانيا و التى أثقلوا كاهل عروشها بديونهم إضافة إلى تحولهم إلى جماعات من المرتزقة على استعداد لخيانة قومهم فى سبيل تحقيق أرباح أكبر (و ظهر ذلك جليًا فى الحملات الصليبية الثالثة و الخامسة) و قد أدى هذا إلى تعرض فرسان المعبد (أكبر التنظيمات السرية فى هذا الوقت) لبطش ملك فرنسا فيليب الرابع (الذى كان العدو الأول لهذا التنظيم؛ لأنه كان أحد أكبر المدينين له بالأموال) الذى سعى للضغط على البابا كليمنت الخامس من أجل إعلان هذا التنظيم مهرطقا و تم محاكمة الكثير من أعضائه فى أوروبا و إعدامهم حرقا عام 1314م و لم ينجُ منهم إلا أعدادًا قليلة فرت إلى أسكتلندا أو إلى جزر قبرص و رودس و مالطا حيث: انضموا للإسبتارية و كونوا هناك نواة للجماعات السرية الحديثة.

<u>و لكن ماذا عن العالم الإسلامى؟:</u>

لقد كان تأثير الحملات الصليبية على العالم الإسلامى مروعًا من الناحية النفسية و المادية و حتى من نواحى الوحدة العامة.

فمن الناحية البرية بالتأكيد بزغت أعداد الضحايا الّذين سقطوا من جراء المذابح الصليبية و التى فاق عددها ربع مليون قتيل من المدنيين العزل (و ذلك فى الحملة الأولى فقط) و هى خسائر كبيرة لم يتعرض لها المسلمون منذ بداية عهد الدعوة.

أما من الناحية النفسية فقد بدأ المسلمون ينظرون لأتباع الديانات الأخرى (من أتباع المسيحيين أولا لأنهم أصحاب الصدام الأول ثم من اليهود بشكل أقل ريبة؛ لأنهم لم يكونوا ظاهرين فى الصورة) بنظرة ملؤها الشك و الريبة و احتمالات العداء خاصة مع الخيانات التى وقعت من أرمن أنطاكية و الرها فى الحملة الأولى (و التى ستؤثر بالتالى على العلاقات بين الترك خاصة و الأرمن فى العصور الحديثة) و لقد ازداد هذا الشعور رسوخا مع الأخبار المتوافدة من الأندلس بسقوط المدن الأندلسية فى يد الأسبان و البرتغاليين و ما تم ارتكابه من فظائع على يد محاكم التفتيش الأسبانية تجاه الموريسكيين(المسلمين ممن وُلدوا و عاشوا فى الأندلس) لإجبارهم على التنصر مع هدم مساجدهم و محاصرة أفكارهم و دعوتهم و حتى العلوم التى نبغوا فيها لم يكن مسموحًا لهم أو لأى من مسيحيي أسبانيا تعلمها أو المنادة بها و إلا اعتُبر فورا من الهراطقة ويجب حرقه حيًا (هذه العلوم التى بنى عليها الغرب بعد ذلك عصر نهضته الكبرى) و هو ما جعل الكنائس فى بلاد الشام و مصر و غيرها فى حالة من العزلة الخاصة فبدأت على إثرها مراسلات مع كنائس أوروبا و القسطنطينية لوصل الود المنقطع بينهم منذ عهد الفتوحات الإسلامية (عندما انقطعت المنفعة من المسلمين و ضعفت وحدتهم قرر نصارى العرب كسر عزلتهم و لو بالتواصل مع عدو المسلمين فمصلحتهم كانت أولى).

وأما من ناحية الحضارة والعقل فقد تعرض المسلمون فى ذلك المجال لضربة أخرى إذ أن صدمة المذابح ودخول العالم الإسلامى فى معترك القتال جعل الأولوية الأولى لدى الناس هى فى تحريك الجيوش والانخراط فى الجندية أو العمل بالتجارة، وفى المقابل بدأت حركة الإبداع العلمى فى التناقص شيئا فشيئا وعنى المسلمون مع بداية عصر الدولة الأيوبية فى الوقوف على تدوين جهود السابقين مع إضافات قليلة (كانت الضربة الكبرى لهذا المجال مع الاكتساح المغولى).

وأما من ناحية الوحدة العامة فقد بدا أن العالم الإسلامى قد أصيب بتفسخ كامل وانقسم إلى ثلاثة أقاليم رئيسية (المشرق الإسلامى والذى تكون من آسيا الوسطى والهند وإيران) والذى بدأ فى الانفصال بشكل شبه كامل عن القلب العربى، وكان عماده من الفرس والترك واختلطت فيه مذاهب السنة والمتصوفة بمذاهب الرافضة وإن كانت الكلمة العليا فيه كانت لأهل السنة.

ثم كان القلب أو ما عُرفت بدول المواجهة وهى العراق والشام والحجاز ومصر والتى كونت مع بعضها خط المواجهة الرئيسى ضد المد الصليبى و إليها كانت تتوجه أغلب الحملات (أربعة من التسعة على الشام وثلاثة على مصر) مع محاولات أخرى لضرب الحجاز والعراق وقد وضع دعاة الفوضى فى العصر الحديث تلك الأقاليم الأربعة على رأس أولوياتهم من

أجـل فـرض نظـامهم على كامـل البقعـة الإسـلامية (فـالمنطق يقـول إن سيطرت على القلب خضع لك الجسد).
و أما فى الغرب فظهرت المملكة المغربية ذات الأغلبية البربرية و التى طالما كانـت الظهير الـدفاعى للأنـدلس، فكانـت بالتـالى أحـد أهـم المسـتهدفين فى مشروع الفوضى العالمى.

و مـع الأسـف الشـديد كانـت مشـكلة تلـك الأقـاليم الإسـلامية المختلفـة فى التنـاحر الـداخلى الـذى أبعـدهم أكثر فـأكثر عـن معـالم الوحـدة و مـن هـذا التناحر تسللت نواة مشروع الفوضى العالمى.

وكأن العـالم الإسلامى بحاجـة إلى المزيـد من النكبات، فكانت نكبته الكبرى التى طغـت كالطوفـان على أغلـب أقـاليم العـالم القـديم فكـان الاكتسـاح المغولى.

الاكتساح المغولى (1206-1405م):

بينمـا كان العـالم القـديم فى خضـم صـراع محمـوم بين المشـرق الإسـلامى و أوروبـا الغربيـة المسـيحية، كـان الشـرق الأقصـى يخضـع لعمليـة تطـاحن عنيف فى بقاع السهول الممتدة داخل منغوليا حتى وسط أراضى الصين إذ ظهرت فيه قوة أخرى هى قـوام مجموعـة من القبائل المغولية التترية التى ظلـت فى نـزاع على مـوارد الكلأ و العشـب و مراعى الصيد فى ظروف غاية فى القسـوة و العنـف حتى نجح أحـد زعمائها ويُدعى تيموجين فى إخضاع كافة

هذه القبائل بالقوة الشديدة إلى سلطانه، فكانت بداية دولة المغول و تسمى تيموجين باسم (جنكيز خان)

و في عقود قليلة اندفعت جحافل المغول في كل اتجاه شرقًا نحو الصين و غربًا نحو أقاليم آسيا الوسطى المسلمة التى كانت خاضعة لمملكة خوارزم و شمالًا نحو السهوب الروسية، و منها إلى قلب أوروبا في موجات سريعة متلاحقة لا تُصد و لا تُرد مدمرة في طريقها كل معالم الحضارة و حارقة للأخضر و اليابس (فقد كان المغول يعتبرون أنفسهم العقاب الإلهى لسكان الأرض و حقا لقد كانوا) و لم ينقضى نصف القرن الثالث عشر الميلادى حتى كانت جيوش المغول قد ابتلعت كامل إمبراطورية الصين ووصلت إلى حدود جبال الأورال و شرق أوروبا مهددة ألمانيا و المجر بل و فرنسا و بدأت جيوشها تدق بعنف على أبواب بغداد بعد أن ابتلعت مملكة خوارزم بالكامل.

و على أبواب بغداد كانت نكبة المسلمين العظيمة التى تحالف فيها أحد الرافضة العاملين في بلاط الخليفة (المستعصم بالله) (كان وزيره مؤيد الدين بن العلقمى من الباطنية الرافضة) مع قوات هولاكو خان حفيد جنكيز خان لدخول بغداد و خدر الخليفة عن الحرب، بل و أقنعه بالذهاب لهولاكو في معسكره طلبًا للسلم (و ما كان لخليفة يحيا في حياة اللهو و العبث أن يمتلك بصيرة اختيار الرجال) و في معسكر هولاكو تمت إهانته و

ضربه حتى الموت ثم اقتحمت جيوش المغول بغداد ودمرتها بالكامل و ألقت بنفائس العلم الإسلامى فى نهر دجلة وذبحوا من المسلمين ما يزيد عن مليون نفسًا ليسدلوا الستار بذلك على الدولة العباسية فى عام 1258م و يتم معه تعطيل أحد أقاليم القلب الأربعة فى العالم الإسلامى.

وتقدمت جحافل المغول تدمر الشام ثانى أقاليم القلب ولكن قدر الله أن يكون بمصر من القوة ما تمكنت معه من ردع هذا التقدم وسحقه فى عين جالوت عام 1260م (ولعلها المرة الوحيدة التى حمد فيها الغرب المسيحى الله على وجود المسلمين فلولاهم لابتلع المغول كامل العالم القديم خاصة مع فشل محاولات الغرب لإقامة تحالف مع المغول ضد المسلمين).

وكان هذا الاكتساح هو العاصفة التى أتت على البقية الباقية من عقول المسلمين فى الشرق إذ أنها ضربت أقاليم القلب فى مقتل من الناحية العلمية والإبداعية وتوقفت بشكل شبه كامل حركة الاختراعات وعكف المسلمون على تدوين منجزات السابقين حفظًا لها من الضياع مع عدم محاولة إضافة الجديد (عُرف هذا العصر بعصر الموسوعات) كما أصبحت الأولوية القصوى فى المراتب العليا للدولة للنخب العسكرية من المماليك الّذين حملوا على عاتقهم صد هجمات المغول والصليبيين سواء بسواء مع اهتمامهم بالممرات التجارية والتى تؤمن لهم الثروات الكافية

obeikandi.com

للحفاظ على جيوشهم قوية (الاعتماد على عنصر واحد من النظام مع إهمال الباقى سيؤدى بالتالى إلى خلل فى النظام).

و أما عن دولة المغول فقد انقسمت إلى أربع خانات فى الصين و إيران و روسيا و آسيا الوسطى.

و قد عمد خانات المغول فى إيران (و الّذين كانوا متأثرين بمذهب الروافض) على شن هجمات مستمرة على أقاليم القلب الشامية مع محاولاتهم الممنهجة لفرض مذهب الروافض قسرًا على بلاد العراق و فارس الخاضعة لهم (و تجلى ذلك واضحًا مع تولى تيمور لنك عرش فارس و الذى بلغ به من القسوة و العنف أنه كان يدمر مدنًا كاملة و يقيم من جماجم ضحاياه نصبًا تذكارية لتخليد نصره. فقد ورد أنه خرب سمرقند حتى لم يستقِم فيها حجر على حجر كما خرب دلهى حتى أنها استغرقت ما يقرب من قرن و نصف للتعافى من هجمته المدمرة) و قد انتهج خلفاؤه ممن أسسوا دولة الشاه الصفوية فى إيران العصر الحديث نفس النهج لتغيير ديموغرافية الديانة (و ذلك انتقامًا للعداء القديم بين العرب و الفرس و الذى مع الأسف راح ضحيته مئات الآلاف من المسلمين السنة من الفرس أنفسهم ممن رفضوا الرجوع عن عقيدتهم) و لقد كان لهذه الإجراءات القسرية بالغ الأثر فى تزايد و تركز أصحاب المذاهب الشيعية الرافضية (و ليس كما يدعون أنها من الجعفرية الصحيحة) فى أقاليم العراق و إيران و

obeikandi.com

بعض أقاليم آسيا الوسطى و مرتفعات الشام التى تأثرت بالهجمة المغولية البربرية.

و أما فى روسيا فقد انتهج المغول الّذين أسلموا بدورهم نهج أهل السنة و شكلوا دولة التتار فى القرم و التى امتدت إلى شرق أوروبا و سيطرت على روسيا القديمة لما يقرب من قرن و نصف حتى تمكن الروس من إسقاطها فى أوائل القرن السادس عشر نتيجة الخلافات العشائرية القبلية (غالبا ما يكون ضعف الجبهة الداخلية هو سبب فوز النخب الخارجية فى الصدامات المباشرة للفوضى العسكرية).

و مع خلو الساحة الإسلامية من دولة الخلافة بانهيار الخلافة العباسية عام 1258م برزت قوة أخرى لعبت دورًا مهمًا فى ملء الفراغ محل الخلافة و هى الدولة العثمانية.

<u>العصر الوسيط يلفظ أنفاسه(منذ عام 1400-1500م) (صفعة هنا تقابلها صفعة هناك):</u>

مع اقتراب العصر الوسيط من نهايته بعد سلسلة من الصراعات المميتة و الإبادات و هدم المدن بدأت قوى جديدة تتشكل فى الأفق جالبة معها طموحات و رغبات جديدة و أيضا صراعات جديدة.

<u>و توزعت هذه القوى على النحو التالى:</u>

obeikandi.com

-فى آسيا بزغت سلطنة الهند المغولية الإسلامية التى بدأت فى فرض سيطرتها و التوسع جنوبًا فى ممالك الهند المختلفة المتنازعة، و إخضاعها تارة بالتحالف و تارة بالقوة و لقد استمرت هذه السلطنة حتى شهدت بداية المشروع الفوضوى العالمى فى العصر الحديث.

-و فى بلاد فارس كانت الدولة التيمورية التى أسسها تيمور لنك و التى تسببت فى تدمير مؤقت لسلاطين الدولة العثمانية عقب هزيمة السلطان بايزيد فى معركة أنقرة كانت قد بسطت سيطرتها على كل آسيا الوسطى بشكل تقريبى و امتد نفوذها حتى خانة القرم و عملت بكل قوة لتدمير المذهب السنى و نشر الرافضية كمذهب رئيسى (وورثها فى ذلك دولة الشاه الصفوية).

-أما فى آسيا الصغرى فقد بزغ نجم البيت العثمانى الّذين كانوا أعوانا لدولة السلاجقة منذ عهد الحملات الصليبية، ثم أسسوا إمارتهم الخاصة فى آسيا الصغرى مع سقوط السلاجقة، و بدأت هذه الدولة بالتوسع فى أوروبا الشرقية و حققت انتصارات فى البلقان على البلغار و الأرمن و الصرب مقتطعين بذلك من أملاك الدولة البيزنطية التى بلغت من العمر أرذله و كانت تتهيأ للسقوط (و التى امتد بها العمر قليلًا نتيجة الاكتساح التيمورى)، و مع تعافى الدولة العثمانية من الصدمة التيمورية و كذا ضعف الدولة التيمورية نفسها، بدأت الدولة العثمانية فى الانطلاق

صاعدة فى سماء الانتصارات الأوروبية، وتوجتها بالصفعة الكبرى التى هزت العواصم الأوروبية المختلفة بفتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح عام 1452م (شكل قيام ممالك الإسلام القوية المتتابعة أزمة لنخب الغرب وأسهم بذلك فى تبلور الفوضى العالمية فى شكل مشروع منظم لضرب ذلك النظام المستعصى على السقوط والذى استمر صراعه حتى وقتنا الحالى).

-وفى أفريقيا وبلاد العرب كانت دولة المماليك هى صاحبة الكلمة العليا مع تصديها المستمر لكافة المحاولات الصليبية والمغولية للسيطرة على بلاد الإسلام كما أن تحكمها فى طرق التجارة عن طريق الشام ومصر جعلها من القوى المؤثرة عالميا (وإن كان الصراع بين نخب المماليك المختلفة أدى إلى ضعف الدولة المملوكية مع النصف الثانى من القرن الخامس عشر).

-أما فى أوروبا فقد كانت الأوضاع تتشكل من صدامات مستمرة بين ملوك و أمراء أوروبا الّذين سعوا إلى تشكيل وحدة أوروبية قوية عن طريق المطالبة بأملاك فى أراضى ملوك آخرين عن طريق الأحقية السلالية فنشأت على سبيل المثال حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا والتى أضفت جوًا من العداوة بين الدولتين امتد حتى أوائل القرن العشرين، كما برز الصراع الإنجليزى الإسكتلندى الذى طالب به عدد من ملوك إنجلترا بأحقيتهم فى حكم أسكتلندا، كذا كانت النزاعات بين الفرنسيين والإيطاليين وبين

الفرنسيين و الألمان و غيرها من النزاعات التى أسست للنزعة العرقية و النعرات القومية الأوروبية التى اشتعل صراعها مع التوسعات الإستعمارية الأوروبية فى العصر الحديث .

وزاد على ذلك الصراعات الأسبانية الإسلامية فى الأندلس و التى عانى فيها المسلمون من هزائم متكررة، حتى لم يبق فى أيديهم إلا مملكة غرناطة و التى لم يستطع حكامها ابقاءها على نفس الحالة، فخسروها عام 1492م لصالح ملوك أسبانيا ورحل ملكها عن غرناطة تشيعه أمه بقولها (ابك مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال) فكانت تلك الصفعة ردًا على فتح القسطنطينية و التى أنهت الوجود الإسلامى فى أوروبا الغربية.

وفى نفس الوقت ونتيجة للمعاملات القمعية الكنسية للكثير من المواطنين بدعوى الهرطقة بدأت تتشكل دعوات جديدة للإصلاح الكنسى، و التى تطورت لتصبح ثورة عارمة على الدين متمثلة فى السلطة الدينية وكل رموزها فى العصر الحديث. وكان أحد أكثر المستغلين لهذه الإضطرابات الإصلاحية من اليهود الّذين بدوا منذ الإجلاء الأكبر وكأنهم دخلوا فى فترة جمود فيروسى، سعوا فيه لنشر ثقافة جديدة داخل الجيتوهات اليهودية وانطلقت منها إلى باقى أرجاء القارة الأوروبية ثم إلى العالم تحت مسمى مشروع الفوضى العالمي. خلاصة

خلال عشر قرون شكلت العصور الوسطى بيئة خصبة للصراعات مع دخول معطيات جديدة لساحة الصراع العالمى كان أهمها بزوغ فكرة استغلال الخلافات المذهبية لإنشاء صدامات دينية عالمية سواء بين أبناء الدين الواحد أو بين أبناء الديانات المختلفة.

ولقد أدى دخول المعطيات الجديدة للمزيد من التعقيد فى التخطيط للفوضى و الذى بزغت معه نظريات مهمة هى الفوضى الخلاقة و الفوضى المنظمة المفتعلة بهدف إضعاف الأنظمة القوية و جرها إلى صراعات منهكة تؤدى بها فى النهاية إلى نزاعات لا نهاية لها.

تم جر النظام الإسلامى الأصيل لمساحات ظلالية مع نزاعات مستمرة تم استغلال الأخطاء البشرية فيها لضرب الوحدة و تحويل المسلمين من جماعة و إخوة إلى أحزاب و شيع متصارعة و ساعد على ذلك الرعونة العربية الحمقاء المتمثلة فى سرعة الغضب و النعرات المتواجهة فرسًا و عربًا و بربر و غيرهم. كما تم استغلال السعار الأوروبى و الظروف الاقتصادية السيئة و الأطماع البابوية فى مشروع عسكرى ضخم أثرت نتائجه على واقعنا المعاصر، و خلقت شرخا لا يلتئم بين الإسلام و المسيحية. و فى النهاية فإن هذا العصر بكل ما أحاطه من إيجابيات و سلبيات و همجية و حضارة و صراعات كانت للمذاهب فيها اليد العليا فى

obeikandl.com

الصراع، كان مجرد بذرة لأكبر مشروع منحرف فى التاريخ و هو مشروع الفوضى العالمى.

بسم الله الرحمن الرحيم (ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) صدق الله العظيم (الحج، 40).

obeikandl.com